FACULTÉ DES LETTRES
ET DES SCIENCES SOCIALES

Institut des Hautes Études Marocaines

Notes et Documents

T. XX

La nouvelle et le théâtre dans la littérature marocaine

Hassan SAYEH

FACULTÉ DES LETTRES
ET DES SCIENCES SOCIALES

Institut des Hautes Études Marocaines

Notes et Documents

T. XX

La nouvelle et le théâtre dans la littérature marocaine

Hassan SAYEH

كتب للمؤلف

مصادر الثقافة المغربية .

تاريخ الادب المغربى .

صمود الاسلام .

احاديث الاحداث .

سليمان القانونى « مأساة تاريخية » .

ملكشاه « مأساة تاريخية » .

أرجلونة « مأساة اندلسية » .

أرد الا موارد منائحه... قال الراوى ، فلما وقع التسليم بمعجزاته المحمدية ، ومناقب أبيه البكرية قضيت المناسك وودعت المسالك ، وطفت تلك البقاع طواف الوداع فلما أردت الخروج والرجوع من حضرة تلك المروج نادتني الازهار من كمائمها والثمار من أغصانها سمعا لهذا الماجد الذى صار اجماعا ، وأحببته أنت عيانا ونحن سماعا ، ونحن نقسم عليك بمواهبه التى كاثرت النجوم عدا ، وطاولت البحر مدا الا ما خدمت بهذه الفاكهة جنانه الفسيح ، والغنيت بها المساكين الذين يعملون له من كل بحر من أشعار المديح ، فقلت اجبت هذا القسم الكريم، وانه لقسم لو تعلمون عظيم، فياله من حج مبرور وعمل متقبل مشكور ، فرائد الفوائد فى سلكه منظومة ، وصحائف لذاته بالمسك مختومة .

انتهت المقامة الزهرية ، فى مدح المكارم البكرية بحمد الله تعالى وحسن عونه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ضحوة يوم الاحد ربيع الثانى عام (لى . صى .ه) I

(١) اشكر الاستاذ العلامة السيد العابد الفاسى الذى امدنى بهذه المقامة من خزانته القيمة

فنثرت على الارض جواهر تغار منها البحور ، وتزدان بها من أجياد الازهار اللبات والنحور ، فأختفت بعد ما تجلت والقت على البطاح ما فيها وتخلت ، ثم قالت ياذوات الاطواق ، النائحات بالاشواق ، المفتخرات على الادواح بالغدو والرواح ، بكاؤكن كذب ونوحكن لعب :

لو كان حقا ما ادعيت من الجوى   يوما لما طرق الجفون كراك
أو كان روعك الفراق اذا لما   ضنت بماء جفونها عيناك

أما الفضل الا لمن احيا الارض ، بعد ان كان زرعها يهيج فاهتزت وربت ، وانبتت من كل زوج بهيج ، فقلائدها مذبجة ورؤس اشجارها متوجة ، فلولاى لم يكن لنا مرعى ولا منسرح فى الارض ولا مسعى ، قال الراوى فبينما هى طلق اللسان ، وتعد ما لها من الحسن والاحسان ، اذ طلعت الغزالة ، وهى فى مشيها مختالة :

مرءاة تبر لم تشم بصياغة   كلا ولا جليت بكف الصيقل
حتى اذا بلغت الى حيث انتهت   وقفت كوقفة سائل عن منزل

وهى قائلة اعمال كسراب ، وعارض منجاب اذا طلعت عليه الشمس ذاب، الم تسمعوا بانى بوح ، أغدو فى مصالح العالم وأروح ، فلولاى ما جرت الانهار، ولا تفتقت الازهار ، قال الراوى فلما رايت افراط اللجاج والتمادى على الحجاج قلت الحق ابلج ، والباطل لجلج هلا أعطيتم القوس باريها ، واسكنتم الدار بانيها فمن كلام من يعقل اذا فاض نهر الله بطل نهر معقل ، الم تعلموا أن جامع هذه الفضائل وامامها ومالكها الذى أحكم انتظامها ، عالم المسلمين ، ومحيى سنة الفضل فى العلمين ، الماجد الفاضل السحاب الهاطل السنى السنى ، فخر المغرب الاكبر محمد بن ابى بكر صاحب الدلاء الكريم الجواد الكثير الرماد كافى الله أنعامه وجازاه عن مقام الدين الذى أراد جداره أن ينقض فاقامه فهو الممدوح بكل لسان ، والماجد الذى لم يختلف فى فضله اثنان ، والسخى الذى ملا الراحة خف عليه التعب، واذا ذكر القدر الذى ارتفع هان عليه الفكر الذى انتصب ، كم ساجلت جوده الغمائم فامست على افتضاحها ثنايا البروق وهى بواسم ، متى طرقت حماه والليل قد سجى ، تجد حطبا جزلا ونارا تأججا .

تلوح فى غرة الايام بهجته   كانها ملة الاسلام فى الملل

فاعترفت الازهار بان شجاها من نسماته ، وأقرت الشمس بانها من قسماته ، وسلم الغمام بانه من صلاته وقال الحمام لا أتغنى الا بمدائحه ، ولا

أبديت ألوانا لاهل الادب ، يقضون لها بالعجب ، فمنى الابيض والاسود الحالك ، ومنى وراء ذلك اصفر فاقع ، وما نصفه قانى ونصفه ناصع ، وبالهند منى شجر تخرج وردا عليه مكتوب لا اله الا الله محمد رسول الله فانا للرياحين ملك ملوكها ووسطى عقودها وسلوكها :

فمن ذا يضاهيني بوصف فضيلة وفضلى على كل الرياحين ظاهر
زمانى على الازمان بـى متشرف وفخرى لمن يبغى التفاخر قاهـر

فرام المنثور ان يراجعه بالمنظوم والمنثور ، ويذكر له من ذلك ما هـو مأثور ، فاسكته ، ورد عليه وبكته ، وتحامل عليه ولم يصغ اليه ، فاما الابيض فاستسلم وابى الادعاء على من ظلم ، وكل من الاصفر والازرق باح بالشكوى الى عالم السر والنجوى فلم يزل يسيل مدامعه ، ويمد الى الله اصابعه ، وعنده سبحانه تجتمع الخصوم ، واليه تعالى ينتهى الظالم والمظلوم :

حاذر اصابع من ظلمت فانه يدعو بقلب فى الدجى مكسور
فالورد ما القاه فى جمر الغضـا الا الدعا باصابع المنـثور

قال الراوى فبينما هى فى مطارحة وجواب ، ومفاخرة واعجاب اذ أقبلت مطوقة الرياض ، ولها من الجو انصباب وانقضاض :

ورقاء قد اخذت فنون الشوق عن يعقوب والالحان عن اسحـاق
وانا الذى املى الهوى منخاطرى وهى التى تملى مـن الاوراق

فباحت بشجنها وتكلمت على فننها وقالت كل يحاول جهده ويقول بما عنده ، الى لا لكم الفخار ، وأنتم لنا أعشاش وأوكار ، وفروعكم لخطابنا منابر ، ولقياننا ستائر ، اليس رؤوسكم لاقدامنا خاضعة ، ولنا كلما نزلنا ساجـدة وراكعة وانا على ما زعمتم بنا من الجوى وتباريحه اخذون فـى ذكـر الله وتسبيحه ، شغلنا ذلك بالاسحار والعشى والابكار .

قال الراوى فبينما أعجب مما سمعت ، وأهم بتقييد ما رويت اذ نشأت غمامة تصافح اهدابها الارض ، وتسد الآفاق على الطول والعرض ، يحدوهـا الرعد ، ويستنجز منها الوعد .

وكأن صوت الرعد خلف سحابة حاد اذا ونت الركائب صاحـا
اخفى مسالكها الظلام فاوقدت من برقها كى تهتدى مصباحا
جادت على التلعات واكتست الربى حللا اقام لها الربيع وشـاحـا

أما راقك الياقوت الاصفر وسط الدر الابيض على الزمرد الاخضر يشهد بمنافع البينة فى الفصول والازمنة شموا النرجس ولو يوما فى السنة فانـا غذاء الروح لمن يغذو على ويروح ، لطيف المزاج ، أصلح للعلاج وازيل مـن لاندفاع مضرة دخان السراج ، وأخفق على العشاق يوم التلاق :

وإذا قضيت لنا بعيـن مراقـب ... يارب فلتك من عيون النرجـس

فنهض اليه البنفسج وثار ، وتكلم بالسن كأنها أوائل النهار ، وقال لا يظهر له امر ولا يسلم له فخر الا على الورد فما لامرك عليه من رد :

خجلت خدود الورد من تفضيله ... خجلا توردهـا عليـه شاهـد
للنرجس الفضل المبين وان ابـى ... آب وحاد عن الطريقة جاحـد

فضل قديم ، يعرفه الندام والنديم ، وأما أنا فبهجة لازوردية ونسمـة عنبرية ، ريحانة الجيوب ، المحلية للقلوب :

يامهـديا لى بنفسجـا ارجـا ... يرتـاح صـدرى له وينـشرح
بشرنـى تصحيفـه عـاجـلا ... ان ضيـق الامـر ينفسـح

فاقبل الورد فى جنوده ، ناشرا لراياته وبنوده ، محمر الوجنات ، منكرا على البنفسج ما جاء به من الترهات :

ولقد رأيت الورد يلطـم خـده ... ويقول وهو على البنفسج يحنق
لا تقربـوه وان تضـوع نـشره ... من بينكم فهـو العـدو الازرق

كيف يفخر النرجس من بين الرياحين ، على نخبة الملوك والسلاطيـن :

ان كنت تنكر ما ذكرنا بعد مـا ... وضحت عليه دلائل وشواهـد
فانظر الى المصفر لونا منهمـا ... وافهـم فمـا يصفر الا الحاسـد

الم تسمع ما قيل ، مما سيلقى عليه القول الثقيل :

من فضل النرجس فهـو الـذى ... يرضى بحكم الورد اذ يـرأس
أما ترى الورد غـدا قاصـرا ... وقام فـى خدمتـه النـرجـس

أنا مشرف الربيع ، ومظهر ما له من البديع ، أنعش الارواح فانا عروس الافراح ، نوافح ذكية وروايح .

فصاح به النمام ، اقصر فلى بحضرته النام ، متى حملت الرياض ، ومتى نسب الحباض . والى توجهت الخضرة . وقد ابدى صفحة ليس لها عرف ولا نفحة . اما تأنيب سوء ذاتك . وقضاء ريبك . وقد خرج اماس شهادتك وورد ... واستاذنك !

انظر الى النارنج وحاماته   تحكى وقد ماست امام الرياح
كبيبة خضراء مهزومة   شقائق النعمان فيها جراح

ثم ... مستخفيا ، واقلعت مؤذنة بالرحيل ، عن الرسم الجميل ، فما الخضرة الا الخضرة ، او ما علمت ان بها يشبه العذار ، اذا استدار . ما احسن الريحان فى ... فان قب نمام فما نم الا بعرفه ولا باح الا بسره :

كم كره النمام اهل الهوى   أساء واخوانى وما احسنوا
ان كان نمام فمعكوسه   من غير تاذيب لهم مامن

فـ ... البان ، وقد ظهر عيبه وبان . ايها المفتخر بعيبه ، المتحلى بما ليس فيه . تسرق السمع بادى فرس . فلسانه كله خلس . أما علمت ان النمام فى النار . اما تعلم عنه العار . بعيض الذات خادم اللذات تطير من اسمك الناس وما له فى المنقل من ناس :

اقول وطرف النرجس الغض شاخص   الى وللنمام حولى المـم
ايا رب حتى فى الحدائق الغيبن   علينا وحتى فى الرياحين نمام

ما الحسن الا للقضيب المشوق والقد المنشرق ، المكتسى فاخر الملبس ، الراخى فى الديباج الاطلس ، الى تنسب القدود الملاح ، وعلى فاقى يعتدل العادل ويلحى اللاح :

تبسم زهر البان عن طيب نشره   واقبل فى حسن يجل عن الوصف
هلموا اليه بين قصفه ولذة   فان غصون البان تصلح للقصف

فاجابه النهار البهار ، البادى مثله فضل النهار :

مشى غصن البان اذنابه   وماس وقت الصبح عجبا وفاح
وقال هل فى الروض مثلى ...   تعزى الى قدى قدود الملاح
فحرك النرجس ... بيته   وقال حقا قلت ذا ام مزاح
بل انت بالطول تحامقت يا   مقصود عجب بالدعاوى القباح
فقال غصن البان من تيهه   ما هذه الاعين الا وقاح

فانا لكذلك اذ برق الجو فسل علينا نصوله المذهبة وارتفعت للغمام فسطيط مطنبة ، وجعل السحاب يسوق المواكب ، وأخذ الرباب يرتب الكتائب فتصبب عرق ، ونادم الروض فغنى وسقى ، فما أغمد سيف ذلك البرق ولا انقشع ذلك الودق ، الا والمساء قد طفل ، والروض فى ثوب الاصيل قد رفل .

وربـ عيشـة فيهـا طفقنـا ... نرود الظل والماء القراحا
وقد ضرب الضريب بها قبابا ... على البطحاء ابهجت البطاحا
وكان جنانها يخضر آسا ... فاصبح زهو مبيض اقاحا
كان الخضر جربها يمينا ... ومد عليه جبريل جناحا

فبتنا جيران دولاب يهدل ، وأغصان تنثنى وتعتدل ، وستر الظلام ينسدل ، فانجلى الافق من روضة غارت منها الرياض ينساب من مجرتها على الافق ما يفعم نخياض، وانستنا ما طوى النهار عنا من المحاسن ووردنا من بقية انسنا ماءها غير كدر ولا آسن .

تحسب النجم فى دجى الليل زهرا ... فى رباها وتحسب الزهر نجما

فمتعنا الطرف فى الروضتين ، وحصلنا من الانس على جنا الجنتين حتى عبث الابتسام بالوجوم ، وفاض نهر المجرة على حصباء النجوم ، وكاد جرف الليل ينهار ، سمعنا من بين جلبته الطير والازهار .

عاث المدام اذا رأيت شبيهها ... فى الافق يافردا بغير شبيهه
فالصبح قد ذبح الظلام بنصله ... فغدت حمائمه تخاصم فيه

قال الراوى فاوجست خيفة فى نفسى ، واعتضت الخيبة بدل انسى ، وقمت مذعورا لفرط الدهش ، والجو بين الضياء والغبش ، يقلب الله الليل والنهار ، ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار ، فتراءت لى وجوه الرياض تتغب دما، كانما اكتست الاوانى من حمرته عندما ، فتوهمته من بقايا الشفق ، اسفر منها ضوء الفلق . فاذا هو ينادى بلسان طليق انا اخو الرياض (الشقيق) كم كسوته جمالا ، وكسيته من دلى ورقى ما لا ، من وجهى تعرف نضرة النعيم ومزاج كاسى من تسنيم فدع قول عياض ، ووصفه اياى بين الرياض ، وخل من الالوان المخضر ، واسمع ما قيل الحسن أقمر ، فالازاهير عساكر وانا لها أعلام ، وحسبى ما قال علماء الشعر الاعلام :

وكان محمر الشقيق اذا تصوب او تصعد
أعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد



الماريونيت ـ تشخيص فرقة مغربية

المقامة الزهرية فى مدح المكارم البكرية للفقيه الاجل الماجد الافضل سيدى محمد المكلانى رحمه الله

حدثنا بشر بن سرور ، عن سهل بن ميسور ، عن الضاحك بسنده عن بسام ، قال تراءت لى من الامانى الوجوه الوسام ، وانا من نشط الشبيبة وفور الحظوظ والاقسام ، لم يعنى من قواعد اللهو الا الحج ، فاقمت من قول القائل وظائف العج والثج :

احجج الى الروض لتحظى بـه   وارم جمار الهم مستنفـرا
من لم يطف بالروض فى زهره   من قبل ان يحلق قد قصرا

فلبيت داعيه ، واصغيت اليه باذن واعية ، وأزمعت المجاز الى المشاعر التى ليس بينها وبين اللذات حجاز واعملت بعملات العزم ، وادخلت على مقتل السوانى عوامل الجزم ، فتحيرت من السحر أطيب أوقاته ، وأحرمت مع حجيج الآس من ميقاته ، وسرت والنسيم مقتل ، وخد الثرى بمدامع الانداء مبتل ، فاتيت زوضا قد تولاه الولى ، ووسمه الوسمى ، وأظلته رايات الصباح ، وباكرت النصف بقبل ورد من قبل ان ترشف شمس الضحى ريق الغوادى من ثغور الاقاح فاقمت منه :

حيث الغدير قد اجاد نقشـه   كف النسيم ومرة فى جوشن
وغصون أدواح الرياض تهزها   نغم القمار بالغناء المحسن
ما بين ثغر للاقاح مفلج   وجبين نهر بالنسيم مغضن
ووجوه عاتيك الرياض سوافر   غيد تزان من المياه باعين
والارض تجلى فى زرابى اخضر   والجو يبرز فى قناع ادكن

وما زلنا بين تلك المنازل ، نرمى جمار الفوائد ، ونرد من ذلك اغلى المصادر واعذب الموارد ، الى ان ارتقت الشمس درجة العلى ، واستوت لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء . فترامينا على تلك الظلال ، مستحسنين قول من قال :

وقانا لفحة الرمضاء نخـل   وقاه مضاعف النبت العميم
يراعى الشمس انى قابلتنا   فيحجبها ويأذن للنسيم
وسقينا على ظمأ زلالا   الذ من المدامة والنديم
تروع حصاه حالية الغوانى   فتلمس جانب العقد النظيم

بالصبية قد اتت تدرج درج القطا على الاقدام وتبدت فاقبلت اقـبال العام ، ووردت ورود الغنا على اهل الاعدام ، وهى تزعم لنفسها كما يزعم البطـل الهمام اذا ساعدته الايام ، ترمق بلحظ نائم وتفعل باشفار لها فـى قلـوب المشغفين ما تفعله الصوارم ، ثم قالت ونادت : يا ايتها العجوز الجرز الشمط ، يامن كشفت بغيها عن نفسها الغطا ، اما قنعت ياعجوز يانشوز اما كفاك سد الله بالشوك ذلك ، هيهات يابنت الدروز ، ان يكون لك بعد الهرم طلـق او يكون الجديد مثل الخلق . اما رأيت شعرى الفاحم وثغرى الباسم وغصنى الناعم ، ثم حطت النقاب فاخرجت الشمس من تحت السحاب وقد سلمت على القوم فافصحت وقالت فاوضحت الحمد لله الذى غرس ريحانـه الشباب فـى قلوب ذوى الالباب واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، شهادة اذخرها ليوم التلاق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى ءاله واصحابه الذين اقاموا دين الله ، وزيفوا عصابة النفاق ، ثم قالت وللعجوز اشارت ويحك لو كنت تبكين على ما مضى لكان لك اقرب الى الرضى ثم انشدت :

نور الشباب له عـز وسلطـان	وللسعـادة ارجـاء واوطـان
وللمحاسن اوصاف تقوم بهـ..	وللحقـائـق ءايـة وبـرهـان
روض الشبـاب تبدت فيه اربعة	ورد وزهر ونسريـن وريحـان
من قال ان زمان الشيب يشبهه	عهد الشباب فذاك القول بهتان
ياذا العجوز اندبى ما قد مضى أسفا	ترحلت عنـك اوقـات وازمـان
وانتم يا اهيل الحسن كلكـم	بينى وبينكم فى الحرب ميدان

قال المؤلف فلما فرغت الصبية من النظام أقبل الجوارى والعجوز عليهن امام ، فقالت لها العجوز بورك فيك من صبيه ، وفى الفاظك الزكية ، وساقول بينكم مقاله انصاف يقتضيها الحق وجمال الاوصاف. اما البيضاء والسوداء فهذه فضيلة وهذه تمرة وزينه الدنيا ذهب وفضة ، ثم قالت للكاملة والقصيـرة مسئلتكما عندى يسيرة ، اذا كانت الصورة الحسناء كاملة ، فهى من النعـم الشاملة وعلى هذا فالقصيرة الذراع لا يمتد لها فى مجال الفخر باع فان القصر مذلة بسبب هذه العلة ، فتادبى مع ذات الكمال فانها أبهى منك وامتع للرجال، ولو كنت بالسوية معها فى الجمال ، ثم قالت للسمينة والرقيقة بالله لا اخفى عنكما من معنى الحق حقيقة ، فالسمينة جنان والرقيقة غصن وريحان ، ثـم قالت للبدوية والحضرية سافصل بينكما فى حكم الانصاف فى هذه القضيـة أما القول الصحيح فكل واحدة منكما املح من مليح ، فالعربية تصلح للحضر والسفر ، والحضرية لا تصلح الا للحضر ، واما انا والصبية فحجتها واضحـة وحجتى غير جلية ، لانها أبدع منى فى الجمال وانفع منى للرجال ، وأما العجوز مثلى فقد عرمت بمضايقة الآجال فما لاحد فيها مجال ، ثم انصرف القوم وارتفع العتاب واللوم . وهنا انقضى الكلام وعلى من يقف عليه السلام .

اليه فوية . والصبية تدنى وتقول لم الحمق وقلب العقول يا قوم تعدوا بينى وبين هذه العجوز بكلام يحقق ويجوز . فقالت لها العجوز . يا هذه الزمى الوقار والزمى القدر فانا افصح منك واعظم واسبق واقدم . وانا اليوم عضو التقديم لان لى عليك الحق القديم . ثم قالت فى المقام الحمد لله راحم الشيب وساتر العيب . وجامع الخلق ليوم الجمع بلا شك ولا ريب . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى اله ومن انتسب اليه بسبب او قرب . ثم افصحت العجوز وقالت انا من ذوات العهود والمواثق . اجمع بين المعشوق والعاشق . وازوج العرائس . واقبل المعانس . واشرف المجالس . وازجع للرجل انيس من مؤانس . ولا تجرى السفينة الا بمحاولة الرائس . الجم الرجل بتشكيمه واركبه فى الاركاب بموز كالبهيمة . وان طلب منى ما حام وطار . نقضى له كل المآرب والاوطار . ويجد عندى كل سلعة لا توجد عند العطار . نرفع عن ارض الديون والوظائف . ونسقط عنه جميع التكاليف . وننفع منه بالزيادة . واجمع له محبته وطيبته . ان زرع او غرس فى ارضى فما يخاف ولا يتقى من عدو ولا من مرض . فانظرى ايتها الصبية من يكون لك عون . ولا تمشى على الترى فمعرفى كما عرف فرعون . فانى اكثر منك فتشا على المناسب . ولى معرفة ونص ذهب . وان شئت مناظرتى ومناطقتى فدبرى فى العواقب ثـم انشدت :

امت الدهر بابـــن سرواسـى   وصار لك البغا نصــب العيـان
فكم طعن منا فى خفض عيش   واخلــف ظنــه بعــد الامانـــى
لاه انعــرض عمــرى وابغــى   سعـودى ثــم ساعــدنى زمــان
عيـب الجال فى زمن المحان   ونــزعــت الجفــون بمهــرجان
وانى اليوم مــن سنيــن عامـا   ولكــنى اعــد مــن الحســـان
فيوم فــى المجالس بانـعـاط   ويــوم فى المحــافل والمغانـــى

قال المؤلف وكانت العجوز مخضوبة البنان . مسوكة الفـم وليس لهـا اسنان مصبوغة الحاجب والسالف . تندب على ما فاتها فى الزمن السالف ثم تاهت تستمت . واحدثت فيما قصدت :

اذا حف نجل الخبر يحلو مذاقها   واحلى مذاقا فى الثمار العجائز
نحوت وابيض الشعب منى فاجر   الا ان ... حربى مبارز
فطعمى ذكى طيب النشر عاطـر   وانسان عينى للمحبين غامز

ثم قالت . وان اردت بهذه المجون والرقاعة فانا والله ربة الصناعـة والسيادة الجامعة . لم امتلك الصبية تهتز بنخوة الشبيبية . قال المؤلف واذا

واليه ترجعون ، لا اله الا هو الحليم الكريم القديم الذى اذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون ، وصلى الله على سيدنا محمد الذى نور الافئدة فابصرت للبصائر وقرت للعيون ، ثم قالت وانشدت :

قد مال الحسن الى العرب　　نحن الاقمار بلا كذب
فلنا ارج ولنا غنج　　ولنا دعج بالسحر حبى
ولنا كرم ولنا همم　　ولنا ذمم للمكتئب
ولقاصدنا فينا ارب　　فيما يرجوه من الأرب
قد شرف محتدنا وكفى　　أن المختار من العرب
صل ما دمت عليه تفز　　يوم الاهوال من الكرب

ثم قالت نحن ربات القلوب ، ومنتهى غاية كل مطلوب ، جما لنا ابدع جمال ، ولساننا افصح لسان ، فالعربية بهذا البيان ، قمر فى شكل لسان ، ثم سكتت وجلست فى المكان ، فقامت الحضرية الزينة تفخر بصفات المدينة . قال المؤلف واذا بجارية حضرية ذات جمال فائق وهمة سنية ، نادتها كفى الجدال وارجعى بهذا الى الاعتدال . ابا لمعاطية تلوذ وتدخلنى بجهلك فى زقاق غير منفوذ ، فاياك ان تذكرى فى هذا المحفل نسبا ولا قبيل ، وان اردت ان تفتحى بابا فيها انا على السبيل ، واعلمى ان رعيان الجمال ، لا يفتخرن بطرف ولا جمال ، ثم قالت وافصحت فى المقال الحمد لله الذى فضل على البادية الحاضرة ، واعطانا الراحة فى الدنيا وأعاننا على طريق الاخرة ، وفضلنا باحسن الملابس وأيمن المواطن ، وأمن قلوبنا فى الظاهر والباطن ، ووشحنا بالحلى والحلا وأسكننا فى القصور والدور فى ظل الحجب والكلا ، واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، عدة للقائه يوم تكون النفوس حاضرة ، والنفوس الى ربها ناظرة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى ءاله واصحابه وأصهاره وازواجه وحزبه وانصاره ، ثم قالت وأفصحت فيما ابانت ما أعطيت الهمة السنية، الا للجارية الحضرية خدى مورد ، ونحرى مفند ، ولا يرى صدرى العابد الزاهد الا وشهد ثم انشدت :

الا انما الحسن حسن الحضر　　علينا ومنا وفينا ظهر
فان كنت يا هذه نجمة　　باعلى السماء فانى قمر
بسحر الجفون وغنج العيون　　أسل القلوب كسل الشعر
ومن ليل شعرى ظلام السنا　　ومن وجنتى الصباح الاغر

ثم قامت العجوز بكلام لا يجوز . قال المؤلف فلما اتمت الحضرية هذه الابيات ، وقد افصحت فى البلاغة والغيات ، واذا بهزة عظيمة فى المحفل كاد يرجع اعلاه منها اسفل فاتت عجوز قد اشتبكت مع صبية وبينهما معاطات

تبتهج بالرفعة والابتسام ، وتضطرب لها يضطرب الحسام ، وتبتسم عن ثغر كالسلسال ، ريقها كالعذب البارد الزلال ، ثم قالت الى ان يتعسر العشاق فعلى مثل ذلك الاطلال ، وتحرق القلب الحرق ثم تقضى نحبها ورجلت ديما فقالت : والحمد لله الذى اودع الحكمة فى النفوس ارفاق باعث الخلق ومسرعهم يوم التلاق ، والصلاة على نبينا محمد المخصوص بالحوض والشفاعة ، واللواء والبراق ، صلى عليه واعلى ما حدا حاد وساق الركب اليه مشتاق ، ثم قالت وافصحت وابانت يا من حضر مجلسنا ، ولاذ بانفسنا ، استمعوا مقالة هذه الفاكهة وما ظهر منها من قلة المزاعة عده التى يفتح فمها مثل التمساح ويسمع الفرح وتخرجهم صحاح ، وان قرب منها الرجل لقصد أوسول عرف فى بحر السول ، فمها بالعنف حازم ، كما تفعله البهائم ، ثم ابرقت وارعدت وقالت وانشدت

وفاكهة ليس لها من خلاق	هواك أنساك ليوم التلاق
والحشر والنشر وأهواله	وحجة العبد ويوم المساق
لو كان للقلب به فكرة	لكان للجسم ضنى واحتراق
حتى رقى فى النفوس ولا	يرى قلب الصب الا وراق

ثم قالت ما حيلتك ايها الفاكهة اذا جاوزت الاربعين ، واتتك العلل بجيش معين وقد نفت منك الحواصل وهجرك الصديق المواصل ، وتكمشت منك الحلاقم وتعرقت على الخدك البلاعم ، وتعطلت منك الغوانم ، فلا تتحرك الا بعجلة ودعائم ، وانشدت :

اذا رق الحسام فضى وامضى	وحط بخطه جيد المفارق
وان رق الزجاج وزاق فيه	رقيق الخمر زاق لكل زاق
تبصره نحيلا فى نحيل	ويعظم فعله عند المذاق

وقال المؤلف ثم ابهت النقد بين الصفين وتهارشتا بالايدين ، ولم يزالا متعاقبين على المقعدين الى احرجنا وغابنا عن العينين ، ثم اقبلت العربية تفخر على الحضرية ، قال المؤلف ثم انى سمعت صوتا يلوح ويصيح ويقول بلسان فصيح :

مهلا رويدا باجميع من حضر	حتى أقول بين بدو وحضر
من هن زينات الخدود الناضرة	ذات الخيام او نساء الحاضرة
نحن جوار من بنات البادية	محاسن الحسن علينا بادية
فان بنت منكن لى مكلمة	أنا التى أردعها مكلمة

ثم حطت اللثام عن ثغر يشبهى الابتسام ، وقالت من بديع الكلام ، الحمد لله الذى امره بالكاف والنون الحاضر الناظر القاهر الذى بيده ملكوت كل شىء

ثم قالت على ان القصر والكمال ، انما هما فى الافعال ثم انشدت ولم تبط ؛ ورمت بسهم صائب ولم تخط فقالت :

وقصر السهم فى يوم الكفاح	تجدل من تسربل بالسلاح
ولا سكين اقدام وبأس	اذا ضاق الفضاء عن الرماح
وللطير الغريد حنان صوت	بالحان واصوات فصاح
وهل تبدى النعامة حسن صوت	بعصن او بعد من الملاح

ثم اقبلت السمينة بمحاسن الزينة ، قال المؤلف فبينما هما فى طويل من الكلام وعريض ، يتنازعان أبيات القريض ، اذ سمعت بضجيج كضجيج الناس فى الحجيج ، والناس قد تطاولت أعناقهم ، وشخصت احداقهم ، واذا أنا بفلاغ يسوق مركبا موسوفا بالسلاع ، فقلت ما هى السفينة ، قيل لى هذه الجرية السمينة ، فدار المحفل عليها كالحدقة ، فقلت سبحان من لا يمل من خلقه ، فحطت من القلق رداءها ، وغاظت بأعكانها حسادها واعداءها ، وقد تكلل العرق على جبينها كدر الحباب ، وفتنت بروض خدها ذوى الالباب ، فقالت من القول اللباب : الحمد لله باسط الرزق وسابغ النعم المنفرد بديمومته بالقدم والصلاة على خيرته من خلق سيد العرب والعجم ، صلاة تنجى العبد فى يوم المزدحم ، قال المؤلف فلما تمت واجملت ، وضعت بكفها على عطفها ومالت كالبحر الزاخر فقدمت المقادم ، واخرت المواخر ، ثم قالت اين هذه المصقولة الصوت الواقفة بين ميدان الحياة وميدان الموت المنفوضة اللحم ، التى حرم عنيها كما حرم على بنى اسرائيل الشحم ، المنغصه العيش الكثيرة الطيش الضعيفة المخاخ ، الشديدة الفخاخ ، النحيلة من غير علة ، الهزيلة من غير قلة ، كفى ياسقومه عنى هذه الغزارة ، واعلمى ان على جسمى من الزينه نضارة اقتنص بها القلوب من غير حيله ، ولا ادارة ، ونهدى واعكانى يغنيانى عن الشوزة فى اركانى ثم انشدت فما قصرت :

الحمد لله فى سرى وفى علنى	حمدا يخلصنى من ظلمة المحن
قد نلت ما اشتهى فى الدهر من أرب	فى العقل والقلب منى ثم فى بدنى
ان البهاء يزيد الخلق منظره	كما تزان حلى الاشجار بالدمن
أرحت قلبى من هم ومن سهر	وساعد السعد بالافراح فى زمن
يامن تعود بالتوبيخ كف فما	يشبه العجف فى الانعام بالسمن

فالحمد لله على المحاسن الكاملة والنعم الشاملة ثم أقبلت الرقيقة باوصافها الرشيقة قال المؤلف فلما احتفل المجلس سمعنا صوتا من خلفها يناديها يقول لها اجلس فما استقر بها القعود الا وجارية قد وقفت كانها كوكب السعود

ووقف نقيض . فسمعتها تقول ايها الحاضرون ذوو العقول فمنكم تحكمون بيني وبين هذه القصيرة فانها تعيب القصيرة ، تعيب الكمال وهي بقصرها غير مشكورة . وقد تقضي الله عليها بالكمال وهي الطبقة الثانية من الجمال ثم قالت في ... على ذي الجلال وقالت في المقال . الحمد لله فالق الاصباح من بعد الغيوم ... وصلى الله وسلم على محمد نبيه سيدي ... لنفسه حبيبا وخليلا وارسله لجميع خلقه نبيا ورسولا : ثم قالت اين هذه التي تعيب ما لا يعاب وتدخل نفسها في الامور الصعاب لا تحجب عين الشمس بالغربال . والثعلب لا يقابل بالاشبال . ثم صالت وما اعتمدت وقالت وانشدت :

نحن قوم لنا بهاء الجدود ... ولدينا تفاخر بالقدود

كل زين أزينه بكمالي ... وبهائي وغنج لحظي وجيدي

واذا ما ... صار كالدر في نحور القرود

وهذه خطابت اني من غير الواجب ، الم تسمعي ان العين ولو علت فوقها الحاجب . فالى كم يا رابعة ياجوج وماجوج . يكون قوسك معي للشر مسروج ، ثم انشدت فقالت :

ان الكمال له بيوه من النقص ... في الخلق والخلق والافعال والشخص

ان كان ثوب قصير لا انتفاع به ... وبيعه ابدا يجري على بخص

والله البسني ثوب الكمال وقد ... رزقت خيرا وليس الرزق بالحرص

قال المؤلف :

فلما انتهى كلامها . وانتهت نظمها واذا بالقصيرة قد اقبلت تجر اذيالها وتولول اعوالها . فتقدمت القصيرة ولها فصاحة انيرة . فولولت وصاحت ووقفت بين الصفين وقالت يا شقيقة الزرافة الى كم تطيلي هذه الخرافة يا زرقة العشير ويا قصية النشير ، ويا كاملة الصد ويا قليلة القصاد . نحن اهل المعاني الدقاق ، ... وعلى منظرنا طلاوة . ورونق وحلاوة . فارى لك من الرأي ... فان الله عز وجل خلق الكامل والمتوسط والقصير . ثم قعدت على اعلا مكان . وتكلمت بافصح لسان فقالت وصالت ، الحمد لله الملك الكبير الذي ليس له حاجب ولا وزير . وصلى الله على سيدنا محمد وآله ما ... وفاح عبير ثم انشدت :

غزلان الانس ذوو القصر ... وشفاء النفس مع البصر

ليميل القلب بمنظرنا ... وتقر العين مع النظر

... الجيد وبهجته ... وحقاق العاج على الصدر

واذا ما الروض انبت قلت ... بقصار القد من الشجر

... فان لها ... طولا يهديك الى الغرر

ثم قالت : قدى غصن ريحان ، وثغر اقحوان ، وديباج وجهى ارجوان ، فى كل فصل وفى كل أوان ، ونهدى كالجبنة فى المقدار ، وانا أجل حسنا منك وأعلى مقدار ، فلونك ياسميرة مدحور ، ولونى أنا يشبه لون الحور ، فما رآنى أحد الا وظل عائما مسحور ، ثم سلمت بالعينان ، وامسكت العنان ، وجلست بالمكان ، ثم تقدمت السمراء وأفصحت فى الجدال والمرا ، قال المؤلف : واذا بالسميرة قد وقفت وعيناها من الحنق قد ذرفت ، وقالت : لا حجبة بعد اليوم ، ولا خفاء بعد هذا اللوم ، ثم حطت اللثام عن وجه يشهى الالتثام وسلمت فابلغت فى السلام وقبلت تواضعا على الاقدام الاكمام ، ثم وقفت كالعلام ، وافصحت بالكلام . وقالت فى المقام ، الحمد لله الذى خلق الانسان فى احسن تقويم ، وجعله افضل الحيوان وفرق بين الصور والالسنه والالوان ، وزين الابيض بشعر كالغسق ، وامتداد الحاجبين وسواد الحدق . واجل ما يعنى به ، يماسنون اجلالا ويرتجلون فيه الاشعار ارتجالا مسكة الخال ، وعقرب الدلال ، فالحمد لله على ما انعم به من الاحسان والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه الذى اوضح سبيل البيان ثم قالت ، يا أشبه شىء بجبن الروم ، أخرقت حجابا لا تروم ، ما زال طعمك قليل الملح ، وجفنك كثير الرشح ، ولبنك اذى ، وعسلى انا اجل غذا ، فقد خلق الله اللبن ابيض يلوث مرشفا ، وخلق العسل فجعله طيبا وشفا للشيخ والكهل والحدث . وما فى قولى هذا عبث ، لونى لون الخمر ، وطعمى طعم الثمر ، ثم أنشدت

الحمد لله ليس النبر كالورق ... قد احسن الله فى خلقى وفى خلق
فالجسم منى نضار صيغ منظره ... بمسكة فقدت طيبا لمنتشق
يامن يعيرنا بالسمر ان لكم ... جهلا يقود الى الطاغوت والحمق
كم اسمر قلبه كافورة وله ... من السعادة نجم لاح فى الافق

ثم قالت وانشدت بيانا ، واظهرت الحق بقولها عيانا .

ارى كل طيب من الاسمر ... كمسك وعود ومن عنبر
وخمر وشهد وحسن بدا ... بلحظ رشا فاتن جوذر
وما هو البياض سوى خمسة ... وما قال الحق كالمفتر
كملح ولبن واجبانها ... ومن عظم فيل ومن مرمر

قال المؤلف :

فلما فرغت من خطابها وكلامها وما ابدعته من حسن نظامها تبرقعت بنقابها وسلمت على الصفين وقبلت أسارير الكفين واذا بجارية تتخطى الرقاب بعد ان حطمت النقاب عن ديباج صقيل ورنت بطرف كحيل ، ومالت بقد قويم،



خيال الظل

(مفاخرات الافتخار ، فى مخاصمة العشرة من الجوار) لابـن محمد عبـد المهيمن الحضرمى عن مخطوط من خزانة الاستاذ العلامة محمد التطوانى بسـلا .

الحمد لله الذى انعم بوجود الانسان ، ومن عليه بالسمع والبصر والنطق واللسان وصلى الله على سيدنا محمد الذى جعله للمرسلين اماما ، صلاة دائمة بدوام ملكه اتصالا ودواما . أما بعد فانى أقص عليك ما رأيت من العـجائب ، وشاهدت من الغرائب . وذلك انى خرجت يوما بخارج بلد فاس الاشهـر ، واتهبت الى واديها المعروف بوادى الجوهر فلم يكن غير بعيد ، واذا بمحفل يزيح بالعيد . وقد دار بينهن العتاب . بالفاظ تعجز عنها السنـة الكـتاب ، بيضاء وسمراء فى معاتبة كبرا ، وكاملة وقصيرة ، فى معاتبة كثيرة ، وسمينة ورقيقة . فى معاتبة حقيقة ، وعربية وحضرية فى مجادلة قوية ، وعجوز وصبية فى مخاصمة بديه . قال فبينما أنا انظر الى تلك الوجوه المشرقـه ، والخـدود المورقة ، واذا بجارية يغلب ضياء وجهها ضوء الشمس فوقفت بين الصفوف ، وسمعت بينها تحسن بيضاء وسمراء ، فى معاتبة كبرى . فتقدمت البيضاء ، واحدت فيما ارادت . فقالت الله أكبر ووقفت وقوف الخطيب على المنبر ، ثم قالت قالت . الحمد لله الذى جعل البياض طراز كل جمال ، وشرف أهلـه بالحب ، والكمال وجعل كل قلب يميل معه حيث مال ، فلا يلحق بشدة ولا حدة ولا بمال واعطى أهله عزة لا تبيد ، وصير السمر لهم عبيد ، فمقالة كل حسن اهله وحمدهم عليهم بحمد الله بالغه . ثم الصلاة على الرسول الكـريم المشفع يوم الذلك وعلى آله وأصحابه أشرف عترة وأكرم آل ثم أنشدت :

قـل للـذى لام لاهـل البيـاض   ما أنـت الا باطـل الاعتـراض
عـروض خـدى ابـدا زاهـر   فى كل فصل فوق خدى رياض
ياحـاسـدى مـن كـمدا انمـا   تجنى المنى من وردتى الغضـاض

ثم قالت الا وان على قلبى جميرة ، من معاتبتك ايتها السميرة ، أمـا علمتى ان غارس الحسد لا يجنى الا ثمار الكمد ، اعندك ياسميرة ما عندى ، لا قدك كقدى ، ولا خدك كخدى ، جبينى ذو ابتهاج ، وذوائبى كقـطع الزاج ورشح عرقى كمسك اذفر يرشح من تحت البرود والمغفـر ، وان اسبلـت شعرى المضفور ، فظلام ليل على قطعة كافور ، ثم أنشدت :

تميـل الى الـحق لـو انـه   يكون على النـحر حد النصـال
تشبه بالنبـل شمس الضحـى   وليل الصدود بيوم الوصال
تمد بالحمام ومسه الغراب   ولا تجعلـن اليـه اتصـال

لنفضلاء والاحرار ، تنفعل النفوس الكريمة لنشيده ، وتعنو ا يهمم العليه لبديعه ومشيده ، وترتاح اليه الطباع العربية ، وتهتز له النفوس الابية ، فتستجلب الارباح بتقليد اعلاق فريده ، وتستجلب اخلاف الفضل بحديثه الغض وجديده .

فكم شفع القريض فنال سعدا … وقرب للسيادة من قصى
وكم اغنى اخا فقر واقنى … وكم اعلى اخا قدر دنى
وحسبك اية اكرام كعب … وما قد نال من عطف النبى

فهل فتى منكم يورى فى مدحهم زنده ، وينفق على اخوانه مما عنده ، ويجلب للجميع ببديع الاستلطاف ، ورفيع الاستعطاف ، ما تفيض به ابحر المواهب ، وتستجلى به وجوه المذاهب ، فقال اجل ، وقام وارتجل :

ارجال تادلة اليكم عزمتى … تسمو وعطفكم الذخيرة والسنا
انزلت رحلى فى حمى عرصاتكم … فعلى الكرام لضيفهم نيل المنى
فتعطفوا لنزيلكم وتلطفوا … ونداكم يقضى بادراك الغنى

فقالوا لقد دعوت منهم مجيبا ، وسترى من ستر الله عجيبا ، غير انك اقتصرت واختصرت ، وقصرت لما اهتصرت فهلا اثرت من نحن جميعا تحت ظلاله الوارفة وخصصت من ملكنا بفضل الله تالد المجد وطارفه ، واستجلبت فان المولى ، احق بالاثرة واولى . مع ان نواله للبرية شامل ، وافضل ما به يدين الانسان الله ويعامل ، وقد افصح عن ذلك واغرب ، اثر للدعاء اذا كان اعم كان الى الاجابة اقرب ، فانشد فتى وما روى ، وانقع علة السامعين وروى :

ارجال تادلة الاكا … رم انتم خير الرجال
واليكم تنمى العوا … رف والمعارف والمعال
ولديكم يرجو المؤ … مل عطف ارباب الكمال
هذا امير المؤمنيـ … ـن بحيكم حط الرحال
متفيئا من ظلكم … وعلاكم ضافى الظلال
ورواه نيل العطف منـ … ـكم والقبول والوصال
فلانتم اسمى الوسا … ئل فى السؤال والابتهال
ولانتم الحصن الحصيـ … ـن اذا طغى خطب وعال
ما امكم متوسل … بعلاكم الا ونال
كلا ولا انتصر امرؤ … بجنابكم الا وصال

فلما اكمل الانشاد ، واشاد من المفاخر ما اشاد ، بلغت النفوس مرادها ، واستحسنوا ختام المجلس بذكر اهل الفضل والنسك ، واستشفوا مسك ختامه وكان ختامه مسك ..

الكرامة لسعد الله بن الحضرمي ، ولا غرو ان يعطى التابع حكم المتبوع ، ويظهر لهذا حقيقة ما هو مروى ومسموع ، ولله قوم يسعدهم ويسعد بهم به ، ويظهر عنايته على من تعلق بسببهم

وإذا السعادة لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن امان

واصطد بها العنقاء فهي حبالة ... واقتد بها الجوزاء فهي عنان

ولما حيمت الجموع بالعدوة الاخرى ، ورأوا السلامة غنيمة وذخرا ، وعاين الناس ما تعودوه مع امير المؤمنين من النجاة والسعود ، والفوز المشهور المشهود والتيسير المعلوم المعهود . هنأ بالسلامة بعضهم بعضا ، وجعلوا ذلك بينهم سنة وفرضا . فلا تلقى غير حامد وشاكر ، ومقر بنعم الله ذاكر ، واتسع لديهم المجال . في الروية والارتجال . فمن ناظم وناثر ، ومقصر ومكاثر ، ومن قائل :

أرى نهر العبيد غدا عنيدا ... يعاملنا بجور واشتطاط

عبرناه على خطر وخوف ... على غير اختيار واحتياط

ولله الالاه لنا فسرنا ... من الريح المسخر في بساط

يهنيء بالعبور البعض بعضا ... كأنا قد عبرنا على الصراط

ومن متمثل في عبور الوادي ، على المعادي :

عسى كنا ركبناها ضلالا ... فيا لله انا ساقبونا

فاخرجنا من الـ... منها ... فان عدنا فانا ظالمونا

ومن منشد ، والى لطف الله مرشد :

عبرت نهر العبيد قهرا ... على بساط من الهواء

ولما حمد الناس الايراد والاصدار ، واستقرت بهم بعد العبور الدار ، وشكروا على فضل الله امامهم ، وجعلوا القبيلة التادلية امامهم ، وذكروا معاهد انسه وزجالها ، واطالت الالسن في ذلك مجالها ، واوضحوا بذكر كراماتهم غرر السيادة واحجالها ، قام زعيمهم فقال : يا قوم ان الشعر ديوان العرب ووسيلة قضاء الارب ، ومفتاح لكنوز الاسرار ، ووصلة الى عطف الابرار ، وحيلة

فسرنا تحت ظلال العدل والامن ، نستجلى كل حسن من غرته الميمونة طالع الفتح واليمن ، ونرفل فى أردية المعالى الضافية ، ونكرع فى بحار الجود الصافية ، ونتمسك من النجح بالعهود الوافية ، ونرتع فى روض الامانى والعافية :

وقد بدت لنا وجوه الهدى مسفرة ولاح نور الفلاح

فلما خيمنا بشاطىء وادى العبيد ؛ قابلنا بوجه الجبار العنيد ، وابدى عن مده ايه الاعجاز ، وقال بلسان حاله لا محاز ولا مجاز ، واستعان عن تلج الجبال بالمذاب ، فارانا بحرا طامى العباب .

نهر يريك السهم سرعة جريه والبحر عمقا والشفير سعيرا
فليسلم النفس المريد عبوره ان لم يكن لطف الالاه ظهيرا

فاحجم عن عبوره القوم ، واستبشر بالزبون العارف بالسباحة والعوم ، وبات الناس فى الآراء يترددون ، ولقصص الناجين والغرقى يعددون ، وقصارى أمنية كل واحد عبور ذلك الصراط ، والانتظام فى سلك الناجين والانخراط ، حتى أنشد بعضهم واستحسن ، وتمنى ما تمنى الحسن :

ألا ليت شعرى هل ابيتن ليلة بسهب الشنين او بسهب بنى ورا
وهل تعبرن نهر العبيد ركائبى وهل أتركن دايا وادواؤعا ورا

فلما تبلج أدهم الليل عن أشهب الصباح ، وحيعل الداعى بحى على الفلاح ، وتولت نجوم الليل تقفو أثره ، وغدت سيوف ذكاء تخرق ستره ، وأدى الناس النفل والفرض ، وأشرقت بنور ربها الارض .

ولاحت لنا شمس الغداة كغادة بدا حاجب منها وضنت بحاجب

صدر الاذن المولوى بالعبور ، وقدم له الصبور فالصبور ، وجعل فاتحة ذلك نجله الاسعد ، وفرعه الانجب الاصعد ، سيدنا ومولانا محمد ، تفاؤلا لتستحسن العاقبة وتحمد ، وكان قد تقدم الامر المطاع باعداد المعادى للاعانة على عبور ذلك العدو العادى ، فلم يكن الا ان عبر الاول مكتفيا بالمختصر عن المطول ، وظهر من لطف الله وسعادة مولانا ما عليه المعول ، وحمد الناس الله على ما سهل من ذلك وخول ، تتابع العبور على الريح والاعواد ، مع سلامة الانفس والازواد ، وشاهد الناس لجيش مولانا المحتمى ، شبه ما ظهر من

تبرى من الجيش شاهقات   على اطرافها الذهب السبيك
على شطى انبو حسد شاهدات   بان الله ليس له شريك

واسمر الذهب السائل ، ينشد قول المجنس الممثل :

ى هذا الربيع شىء عجيب   تضحك الارض من بكاء السماء
ذهب حيثما ذهبنا ودر   حيث درنا وفضة فى الفضاء

والجيش المنصور بحر متلاطم الامواج ، يسير فيملأ الفضاء ويغص الفجاج . ويقبم فيكون هالة على بدر سعود وشرف ، وسور حفظ لا يوف له طرف ، قد راعت صفوفه . وتعددت الوفه . وتنوعت اجناسه وصنوفه :

من كل ابيض قد تقلد ابيضا   عضبا واسمر قد تقلد اسمرا

والخيول تمرح فى اعنتها ، وتمضى فى الخيلاء على سننها ، قد حليت من اسلحته بما راق وراع واعجز وصفه السن اللسن واسلة اليراع ؟

مزينة من ذى الفعال وذامس   وءال الوجيه والنعامة والخيفا

فمن اشهب لبس النور رداه ، وسابق البر عداه :

فكانه فى حليه وسلاحه   صبح تقلد حليه الجوزاء

ومن ادهم جمع الليل عليه اثوابه ، وانبت بين عينيه شهابه :

فكانما لطم الصباح جبينه   فاقتص منه فخاض فى احشائه

واحمر دما وصفه لمعظم عقيق ، واما لونه فعقيق ، واصفر كانه صيغ من ذهب ، او حلى من لهب .

الى الاصيل عليه من نضارته   غلالة ونسبت الظلما حواشيها

ومن ازرق قد اسربل جلة السماء وتحلى بالنجوم ، اوراح استراق السمع فرميه بشهب الرجوم .

هنيئا يا امير المؤمنين وبشره   بجدده والبر بالجد يحمد
مليك حميده الموالى والرضا   واوصافه علم وحلم وسؤدد
يصاحبه امن ويمن ورحمة   ويعضده فتح ونصر مجدد
بنى المجد قد شيدته موفق   رشيد واما رأيه فمسدد
به الدين سام والشريعة غضة   تروق وركن المجد عال مشيد
وان له فى مقصد الحكم حكمة   يحل بها فى الله طورا ويعقد
فلا زال محمود المساعى مؤيدا   يفوز ثناه فى البلاد وينجد

مقاومة الوزير ابن ادريس

حدثنا الفتح بن سلامة، عن نصر بن كرامة، قال الحفنى السعيد ببرده ، والحفنى بحلو عيشه وبرده، وبوالى من حمى الخلافة العلوية العلية ظلالا. واعلق كفى من خدمة الحضرة المولوية العبد الرحمانية حبالا، فى دولة علوية اعلى العلا اعلامها . وحمى الالاه حماها ، عقد السعود على التناصر عقدها وذمامها، واليمن قد واخاها ، فبلغت بطلعتها امنها ومرامها ، وتوصلت لمناها ، وبنى الايمة من قريش مجدها ومقامها ، بين الورى وعلاها ، حموا الشريعة بالسيوف واوضحوا اعلامها ، وتنوروا بسناها ، فكنت منتظما فى سلك كتابها ، ومعهودا فى خدمة اعتابها وصحبت ركاب مولانا العلى العلوى ، وجيشه المنصور المولوى فى احدى قدماته من الحوز، فى سفر اسفر طالعه عن وجه الظفر والفوز .

فى عسكر ملا القلوب مهابة   والارض خيلا بالعوارق يفهق
للفتح والتمكين فيه دلائل   وعليه الوية السعادة تخفق

نهض لها ايده الله غرة ذى الحجة متم عام (ناشر) والسعد لمعهود العناية ناشر، والرعب يقدم جنوده، والسعد ينشر الويته وبنوده ، والنصر تحت ظلال اعلامه وحفظ الله من خلفه وامامه :

والدهر معتدل الآناء مقتبل   والشمس حلت ببرج السعد والشرف

ومطارف السندس بالافاق قد نشرت ، وجيوش النور حشدت الوانها وحشرت .

والارض تجلى عروسا فى ملابسها   وشت حلاها يد الانواء بالزهر

والنسيم قد عطر بنشره الاودية ، وغازل الاغصان فنازعها المطارف والاردية ، وجر ذيل دلاله فى الآكام واودية :

والريح تلعب فيه ارداف الربى مرحا   وتلثم اوجه الازهار
ومنابر الاغصان قد قامت بها   خطباء مفصحة عن الاطيار

والسن الحال تهدى الى التفكر فى مصنوعات الله وترشد ، وكانها تتمثل بقول ابى نواس وتنشد :

تامل فى نبات الارض وانظر   بدائع ما بها صنع المليك

ولا حسن الا وصفك ناسج | له وعد حكم محكم لا يبدل
دواتى موقوف على ان يهب لى | نسيم صبا من نشر ريعك ينقل
عليل ضعيف ان يعد معضلا يعد | صحيحا ولاكن دائما يتعلل
وما لـه لى الاسماع الا معنعنا | لعلياك مسند وعنك يحمل
ومازال فى اذناى قرطا معلقا | كلامك قد شافهتنى يتخلل
فلا زلت مرفوعا محبك يعتلى | ولا زال موضوعا عدوك ينزل

ولما حصل على مخدرته النقاب ، وحلاها بما راق من الالقاب ، تخلص قوب من قاب ، ونكص لحجبهم على الغاب ، وقالوا بدعت والله مع سرعة الانجاز ، وحققت الرد على الصدور من الاعجاز ، وقاموا وقبلوا منه اليد والركبة ، معتذرين من تلك النكبة واذا انكشفت الزحام عنه ، وتبين ما خفى منه ، وجدته شيخنا الضحاك بن بسام ، دخل بلدتهم كما يدخل فى القمر الحسام ، فلم يقدروا له قدرا ، حتى طلع فى سمائهم بدرا .

عن وجهه نقابه ، فجلست بينهم غريبا مدرجا ، لا سمع حسنا مدبجا ، وانفل حكما محكما ، او اوضح غامضا مبهما ، وهم يسلسلون مرسلات ، ويرسلون مسلسلات حتى ذكروا نظم نزيل دمشق الاشبيلى ابى العباس احمد بن فرح ، نقاه الله نظرة وسرورا ودوام فرح ، فقالوا قد احسن منشيه ، واتقن موشيه ، ولم يجد له نظير ، فى ايهام مراعات النظير ، عن السحر الحلال انسم ، ولاعشار القلوب اقتسم ، ولامر ما اعتنى بشرحه البحور ، وطوقت الرواة بدرزه النحور ، وما من شعراء العصر ، يهصر هذا الهصر ، واى منطق ، لهذا يطيق ، فقال قائل فى الاواخر ، ما ترك الاول للاخر ، قد تعاليتم فى المدح للسلف ، وتعاليتم فى القدح للخلف ، وشبعتم العقوق ، وضيعتم الحقوق ، ما قولكم فى ذى عصركم ، ونزيل مصركم ، ان اتى بمثل او افضل ، من هذا الذى اعتمل ، فسخروا منه وكذلك يفعل البادى بالغريب ، وتمثلوا ، وفى تعب من يحسد الشمس نورها ، ويجهد ان ياتى لها بضريب ، فقال دعوا الامتهان ، وادرعوا الامتحان ، فبالامتحان المرء يبدوا تبريزه ، وبافتتان الذهب يخلص ابريزه ، فهاتوا الدواة والقلم والطرس ، اجن لكم من ثمرات هذا الغرس ، فاحضروا ما ذكر ، فكتب غير مفكر ،

حديث اشتياقى نحو بيتك مرسل ... وقلبى ودمعى فى هواك مسلسل
بدا ما بدا منه وابهمت بعضه ... ووريت عن بعض وبعضه مجمل
ويقرئنى مصحفا ومحرفا ... عذولى فما يدرى بما به يعذل
وما دلس الساجى واملى رددته ... وما كان ما اللامى به يتقبل
فزيد هوانى بالهوى متواتر ... ولامتن صبر يمتطى ويحمل
عزيز ومشهور جفاك اصاره ... دليلا غريبا غامضا ليس يغفل
ابيت ارجى اليل مضطربا على ... جمار غضى والفجر امره مشكل
ومؤتلف حالى وحال السبى به ... ضنى وسهادا ما لنا عنه معدل
ومختلف حال لبدره كاملا ... وحالك بالنقصان اذ انت تكمل
ومتفق فى خدك النار تلتظى ... وماء شباب مونق الوشى مخضل
ومفترق حال بجمر له فغى ... حشاى حريق وهو فى الخد يشعل
ولا الوصل معروف ولا القطع منكر ... وادرجتنى للموت والموت اسهل
فادميت احشائى بفاتر مقلة ... ابها القلبى متروك بصحراء مهمل
وجرحتها بذابل منك مشرع ... وشاهد هاذاك القوام المعدل
وليس بمحفوظ متابع فاتك ... منحظ وقد ماله عنه مزحل
مدبج ذاك الخدلون وجنه ... باحمر دمع فى اصفراره يسبل
ومطلق ذاك الشعر قيد مهجتى ... فهاهى فى جنح من اليل يسدل
ومانت الا جوهر مفرد علا ... لحسنه اكليل الجمال مكلل



رواية تاريخية تشخص فصولها بين اطلال وليلى

وكم ليلة قضيتها فى عساكر　　من البق والناموس فى ذلك الحبس
قاسى الاسى من ذلك المدبر الذى　　رأى قصده نقلى الى ظلمة الرمس
وضيع اموال وعرضى ومقصدى　　ولكن حمدت الله اذ سلمت نفسى

وكانت العادة جارية بعرض المحابيس على السلطان ، فى كل شهر رمضان . فاحضرت بعد سنة بين يديه ، وسألنى عن الامر الذى حبست عليه ، فقلت لى قضية اذكرها بين يديك ، واذا انهيتها فالامر الى الله ثم اليك ، فاذن لى ، واستفهمنى عن شانى ، فذكرت له الحكاية على الوجه الصحيح ، واوضحت له الحال فلم يحتج الى تصحيح ، فعجب من حالى وامر برد مالى ، وتبليغ آمالى ، وامر الخطيب ان يزوجنى من بنته المذكورة ، وقام بالصداق من عنده على احسن صورة ، واحضر ذلك المدبر وسلمه الى ، وحكمنى فيه عند وقوفه بين يدى . فذهبت به الى دارى ، وصفت بتلك المحبوبة اكدارى ، فصلبته على الباب مرجوما ، وابقيته سبع ليال وثمانية ايام حسوما ، وسمعت هاتفا يقول :

فمن نحبها نفس عدا النعيم　　وفى صيبه لعنة مطلقة
فلا رحم الله تلك العظام　　ولا برحت بلظى محرقة

وما مر به احد الا لعنه . واستظرفه على الخشب واستحسنه ، وانشدت :

[illegible] جبرى بكسر قلبى وصبرى　　ورقيبى رايته مشنوقا
رام نفعا فضر من غير قصد　　(ومن البر ما يكون عقوقا)

[illegible] شعر [illegible] ، ولو [illegible] الى [illegible] سبب ضرها ، وانه رضيت بقطويها ثم انشد :

ارى الاحسان عند الحر دينا　　وعند النذل منقصة وشينا

وهذه المقامة للشيخ العلامة سيدى حمدون ابن الحاج .

أخبر الوضاح بن فتوح قال : كنت اقتص الاثر ، فى طلب علم الاثر ، اذ قبل جمه عشر ، ورسمه قد اندثر ، وما زلت اجوب فى البلاد وانا كالمفتون ، حتى حللت مكناسة الزيتون ، بعدما طمعت فى مصبها الملوك ، شموسا فى وقت الدلوك . فجمعت جامعها الكبير ، ولم اعرف قبيلا من دبير ، فاديت التحية فى بعض رحابه ، وردت نحو محرابه ، فوجدت جمعا لابسى بياض ، كانهم قطع من زهر الرياض ، يفيضون فى اصطلاح الحديث والقابه ، ويميطون

الناس من الصلاة ، فاتك الثواب ، عدمت الصواب ، حصلت وراء الحجاب ، ضرب بينى وبينك بسور له باب، فخرج الناس من الجمعة ، وعلى الباب طوائف مجتمعة ، واتصل بالخطيب الخبر ، فبادر الى داره وحضر ، فرأى الناس مجتمعين ، والى الحجام مستمعين ، فلما وقع نظره عليه ، ادناه اليه، وقال له ما الحديث ، والى كم تصرخ وتستغيث ، فقال ان سيدى قد دخل الى هذه الدار ، ومعه كيس فيه الف دينار ، ثم لما ادخلوه طمعوا فيه فقتلوه ، وهو فى هذه الدار ، فادخل وعرفنى الاخبار .

قال الراوى : هذا ونحن نسمع الكلام ، ونتوقع الحمام ، فوجدت فى الدار بئرا فرميت نفسى فيها ، وامرت النساء يسترونها بما يخفيها ، فدخل الخطيب الى نسائه ، وعرف من قول الحجام ، وفوق اليهن سهام الملام فحلفن له بما ارضاه ، وقلن حاش الله ، فخرج اليه بغيظ شديد وقلب دونه الحديد ، وقال يا غلام ، دع عنك هذا الكلام فما عندى من يتهم بكلامك ، ولا من ترميه بسهامك ، فصرخ باعلى صوته وقال : قتلوه وليتنى مت قبل موته ، ولو كان حيا ما فاتته صلاة الجمعة ، ولكان حاضرا وانا فيها معه ، واحزناه واأسفاه واسيداه وامولاه غروك فادخلوك ، وطمعوا فى مالك فقتلوك ، ائذن لى بالدخول، فانا اعرف ما اقول ، فامره الخطيب بالدخول الى داره ومعه من الحاضرين من بعثه فضوله على كشف اخباره ، فدخل الدار فى جمع كبير ، فاوقفته المقادير على فم البير ، فقال سيدى فى هذا المكان ، ولا بد من النزول فيه ولو كان ما كان ، ثم نظر فى نواحى البيت، واستدعى باناء فيه زيت ، وحل عمامته وبل طرفها ، وأوقدها لمكيدة عرفها ، وادلاها فى ذلك البير ، وادارها فانارت اى تنوير ، فرآنى جالسا بمكانى ، وقد حل بى من الويل ما كفانى، فاستغاث كذب المماطل ، وجاء الحق وزهق الباطل، سيدى فى هذا البير ، والانسان جار تحت المقادير ، فاخرجت من ذلك المكان ، على اقبح حال واسوأ شان ، فقال لى الخطيب ان اردت الخلاص فاصدق ، فقلت ما دخلت الا لاسرق . فحملت على تلك الحال الى الوالى فسجننى واخذ اموالى ، فبقيت فى الحبس سنة فى عيشة خشنة ، ما رأيت فيها لذة بينة ، وعلمت ان من احسن لكل ردىء الاصل شقى كما شقيت ، ولقى ما لقيت ، وكان مما نظمته فى حبسى مخاطبا لنفسى :

تجنب ردى الاصل واحذره واجتهد	على طرده فالخير فى شرف النفس
واياك ان تغتر منه بملمس	يلين وجنبه اجتنابك للرجس
فان الافاعى قاتل سمها لمن	تدانى اليها وهى لينة المس
ويكفيك فى صدق الوصية ما جرى	على وما لقيت من ذلك النحس
تقصدته بالخير كافى بضده	واوليته المعروف جازاه بالعكس

لو كانت قد رأت وجهها جميلا . وقالت لقد زنت بك الوالدة . وسمحت لـك
بنظرة واحدة بعد ان قلت لها لا بأس بنظرة العين . ورغبتها فى اجر من يجمع
المحبين ، وبالحرى ان تمضى عهدا ، او تتعدى حدا . وتقرر الميعاد يوم الجمعة
وقت الصلاة . ووالدها على المنبر فى مصلاه . فصمت وتصدقت ، وانتظرت
ذلك الوقت ، الى ان دنا الميعاد ، ودخل الوقت او كاد . فخرجت من دارى ، وقد
قصصت اظفارى . وحسنت عينى . وسرحت لحيتى ، واستعملت ما يناسب من
الطيب . وقصدت دار الخطيب . فاجتزت لحجام عنده مرءات . ومقصـات
مستحسنات ، فدنوت الى المرآة حتى رأيت وجهى فيها فوجدت شعر شاربى قد طال ،
وبعض ان يحفف ويزال ، فامرته بقصه ، وان يأخذ منه بمقصه . فامتثـل
امرى ، وقص ما طال من شعرى . فسألته عن اسمه واصله ، لعلى استدل بذلك
على فضله . فقال اسمى فيروز ، واصلى من خيبر . فقلت اسم غتيت واصـل
خبيث . فقصدت اعطاءه درهما عن اجرته . فسبقتنى يدى الى كيس الذهب
لما طبع عليه الانسان من عجلته ، ولما نظر اليه والى ما فيه من الذهب ، طار
عقله وذهب فناولته منه دينارا ، لاكفى منه غدرا . فانكب على قدمى ، وبالغ
فى الثناء على كرمى . وقال مثلك من يخدمه الانسان وهل جزاء الاحسـان ،
الا الاحسان . والله لقد اغنيتنى من كرمك ، ولا اعود اموت الا تحت قدمك ،
وتبعت عقبه بالخير . واسرعت عنه فى السير . فاسرع حتى لقينى ولازمنى
ولاصقنى ، وما تأخر عنى ولا سبقنى . فقلت له انقطع عنى ، ولا تتبعنى ،
وما الذى تريد منى . فقال معاذ الله ان افارق من احسن الى ، وتفضل بهذا
الدينار على . والله ما انا من اولاد الزنى ، ولا من ابناء الخنا . هذا والعجوز
مراقبة وصولى ، ومنتظرة لدخولى . فاعترضنى جمع من المساكين ، وقالوا تصدق
علينا ان الله يجزى المتصدقين . فناولته دينارا آخر وقلت صرفه وفرقه عليهم
وتول ايصال ذلك بيدك اليهم . فرماه الى الفقراء فى الهواء ، وقال اقتسمـوا
هذا بينكم على السواء . ثم هرولت وتركته ، ودخلت مـن الـباب فاراد ان
يمسكنى . وقال الى اين ياسيداه . وقد دخل وقت الصلاة . فلم ارد عليـه
الجواب ، بل ادخلت واغلقت دونه الباب . فما لبث ان طرق الباب وقـال
ياسيدى فاتك الصواب . قد فاتت الجمعة . والاقوام الى الصلاة مجتمعـة
فقالت لى المرأة دع غلامك يذهب . فقد تعدى وغلب . فقلت والله ما هو لى بغلام ،
ولا لى معه كلام . فاخرجنى اليه . والعنى والديه . فخرجت اليه ، وانكرت
فعله . فرمى عمامته وبكى . وقال الى الله المشتكى ، سيدى فى هذه الـدار
المهجورة . وطمعوا فى ماله فقتلوه . وزاد فى الاستغاثة واجتمع عليه النـاس
حلقتان او ثلاثة ، ولم يزل يصرخ ويستغيث ، ويقول الا منجد الا مغيث ،
والعجوز راجفة ، والبنت راجعة ، والام خائفة والطرائف واقفة ، « ازفـت
الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة ، وما زال يصيح ياسيداه يامولاى خرج

الدار التى اختارها ، وقصدى ان تتضح لى اخبارها ، فقال هى دار خطيب البلد وهو رجل كثير المال قليل الولد ، مشهور بالتوقرة الزائدة ، ولا له من الاولاد الا ابنته الواحدة، وهى روحه لاتى بين جنبيه والسواد الذى فيه نور عينيه ، وقد منعها الازواج ، وخطبها جماعة من البلد فلم يسمح لها بالزواج ، فقلت والله لقد شوقتنى اليها ، وحدثتنى نفسى بخطبتها والعمل عليها ، فهل تعرف امرأة تعرفنى باسمها ، وتوصل خطبتى الى امها ، فدلنى على عجوز مشهورة فى عقد النكاح ، تعرف بياقوته الملاح ، فلما لقيتها اوضحت لها الحال، ووعدتها ان تمت المسالة بتحف ومال ، فسمعت كلامى ، وضمنت لى بلوغ مرامى ، وانشدت :

انا ياقوتة الملاح وربى	فى امورى هو الكفيل بقوت
ان سلكت القفار جئت بوحش	او سلكت البحار جئت بحوت
ويقود الصعاب لطف احتيالى	بخيوط تكون من عنكبوت
القنى فى لظى فان غيرتنى	فتيقن ان لست بالياقوت

ثم فارقتنى وذهبت ، واشتعلت نار وجدى والتهبت ، ومضى على شهر لا ادرى امرها ، ولا اعرف مستقرها، فذرفت العيون، وسهرت الجفون، وساءت الظنون ، وقلت :

غاب الرسول فلم يعد بجوابه	ففهمت معنى الحال فى تاخيره
فكانه لم يلق امرا طائلا	فاراد بالتاخير ستر اموره
ما ضره لو جاءنى بجوابه	فعلمت ما قد كان عند حضوره
ان كان خيرا نلت منه بشارة	او غيره فكرت فى تدبيره

قال وبعد ذلك حضرت ، وقد انفطرت كبدى بما انتظرت ، فلاح من وجهها عدم القبول، وخيبة المامول، وقالت والله لقد تحليت وتوسلت فما ظفرت ولا توصلت ، لم يوافق ابوها على زواجها ، ولا سمحت نفسه باخراجها ولكن والدتها رثت لحالك، ووافقت على ذلك ، فقلت لها لقد يئست من حياتى، ودنت وفاتى ، فساعدينى قبل فراق الدنيا بنظرة واحدة ، ولك ولامها، التكرمة الزائدة ، فليس لى غرض غير قبلة فى جسمها ، واخرى فى معصمها :

وبعد ذلك طاب الموت فاغتنمى	اجرى ولا تهملى امرى امت كمدا
وساعدينى على حال بليت بها	وعجلى فلعلى لا اعيش غدا

ثم تصعدت زفراتى ، وتجددت حسراتى ، وتزايد شهيقى ، وغصصت بدمعى لا بريقى ، فقالت اترضى بذلك النزر القليل ، قلت نعم والله على ما نقول وكيل ، فاستصحبت من الذهب ما ارضاها ، وركبت سفينة النصح وقالت بسم الله مجراها ومرساها ، وذهبت وقد ذهبت عيناها ، فغابت عنى قليلا ،

قصة المحب والحجام لابن الطيب العلمي

اخبرنا بعض الظرفاء ، من ذوى المروءة والوفاء ، ممن اعتمد على نقله وروايته ، واحكم بصحة عقله ودرايته، قال جلست يوما ما مع جماعة من الاحباب ، على شيء من الشراب ، نتذاكر ما مر فى ايام الشباب ، وبيننا شاب حسن الصورة ، عليه الملاحة مقصورة ، واللطائف فى شمائله محصورة الا ان شعر شاربه قد طال ، واسترسل غاية الاسترسال ، فسالناه عن سبب طوله ، وبعدم قص طويله ، فقال انا اخبركم بخبر يعجب لذكره الحاضرون ، ويطرب لسماعه المنصتون والناظرون . كنت من شانى اتزخرف فى المكاسب، واتخير منها ما يناسب ، فصليت يوما صلاة الاستخارة، فوجدت نفسى مائلة الى التجارة ، فقصدت مدينة سنجار ، وفتحت بها حانوتا بسوق التجار ، ووضعت فيه من محاسن القماش ، ما استعين به على المعاش ، وزينت الدكان ، بحسب الامكان ، وكسوتها بالاستار على اربعة اركان ، وعاملت اهل الاسواق، بمكارم الاخلاق ، واستعنت بالغربة ، عن ليالى الغربة ، فاتفق لى فى بعض الايام ، ضرورة الى دخول الحمام ، فوجدت فى طريقى جماعة من النسوان ، بينهن غادة كانها قضيب البان، فلمحت من تحت الازار معصمها ، وقد سطع صفاؤه، وابصرت من تحت النقاب جسمها وقد لمع ضياؤه، فوقفت وقد جرى من الجفون دمى ، وتحيرت فى محل قدمى ، ثم تبعتها من بعيد ، ولاحظتها الى اين تريد فدخلت دارا يدل الهلال بابها ، على سعادة اربابها ، فنظرت فاذا بالقرب من تلك الدار ، خياط يخيط فى دكان ، وعنده من الصناع عوان ، ذوو اذقان واجفان ، صنوان وغير صنوان ، فقلت فى نفسى من هذا الخياط استفهم ، ما لم افهم ، فرجعت الى دكانى ، ثانيا عنانى، واحضرت عدة من التفاصيل وجئت بها حانوت الخياط بقصد التفصيل ، فجالسته ، وحاورته وءانسته ، واستفدت ذلك القماش ، وجعلت له من الاجرة ما يحصل به الانتعاش ، ففرح بحضورى ، واغتنى بالموزى ، ووجدت عنده معرفة بالادب ، وشكالى من ضيق الحال والنصب ، وانشدنى لنفسه من شعره المستعذب :

انا الخياط لى ذوق وكس | أرى حالى من الافلاس عبره
ابالى فيه من فقرى ملحفى | ورزقى خارج من عين ابره

فاستحسنت نظمه ، وحملت همه ، وصار يتلقى كلامى بالقبول ، ويقف ممتثلا ما اقول ، فسألته عن ضياع دكانه وديار جيرانه ، فما زال يشير الى كل دار ويشرح حالها ، ويعرفنى تفصيلها او اجمالها ، حتى افضى الحديث الى

فلو انى طلقت كنت موقعـا ... ونفضت من ذاك النكاح اصابعى
لكن طمعت بان ارى الحسن الذى ... زورن لى فرحمت سوء مطامعى
فنظرت فى امر البناء معجلا ... وصنعت عرسا يالها من صانع
وطمعت ان تجلى وابصر وجهها ... وتقر عينى بالهلال الطالع
فذكرن لى ان ليس ذلك عادة ... فى اهلها وخدعنى بخوادع
وظننت ذاك كما ذكرن ولم يكن ... فحصلت ايضا فى مقام الفازع
وحملننى ليلا الى دار لها ... فى موضع عن كل خير شاسع
دار خراب فى مكان موحش ... ما بين آثار هناك بلاقع
فقعدت فى بيت صغير مظلم ... لا شىء فيه سوى حصير الجامع
فسمعت حسا عن شمالى منكرا ... وتنحنحا يحكى نقيق ضفادع
بادرت ان انجو بنفسى هاربا ... ووثبت نحو الباب وثبة جازع
فلقيننى واتيننى بجذوة ... فرددنى ووجئننى بمجامع
ودخلن بى للبيت اجلس نحوها ... فجلست كالمغرور يوم زعازع
واشرن لى نحو السماء وقلن لى ... هذى ربيعة بنت ابن زوابع
هذى حليلتك التى زوجتها ... فاجلس هنيئا حتى اليوم السابع
واهنأ بنعمتك التى خولتها ... فلقد حصلت على رياض يانع
فنظرت نحو حليلتى متاملا ... فوجدتها محجوبة ببراقع
واتيتها واردت نزع خمارها ... فغدت تدافعنى بجد وازع
فوجدتها قرعاء تحسب انها ... مقروعة فى رأسها بمقارع
حولاء تنظر قرنها فى ساقها ... فتخالها مهزومة فى الشارع
فطساء تحسب ان رؤية انفها ... قطعت فلاشلت يمين القاطع
صماء تدعى بالبريح وتارة ... بالطبل او يوتى لها بمقامع
اذ كلما رامت كلاما صوتت ... صوت المعز نحو جدى راضع
فقماء ما ان تلقانى اسنانها ... تعسو اذا نطقت فساء الشابع
عرجاء ان قامت تعالج مشيها ... ابصرت مشية خامع او ضالع
فلقيتها وجعلت ابصق نحوها ... وافر نحو دجى كغيب جامع
حيران اغدوفى الزقاق كاننى ... لص احس بطالب او تابع
حتى اذا لاح الصباح ففتحوا ... باب المدينة كنت اول كاسع
والله مالى بعد ذاك بامرها ... علم ولا بامور بيتى الضائع

نماذج من الادب القصصي المغربـي

قصيدة للشاعر أبي الحكم مالك بن المرحل السبتي أوردها ابن الخطيب في الإحاطة .

الله أكبر في منار الجامع ... من سبتة تاذين عـبد خـاشع
الله أكبر للصلاة اليهـا ... بين الصفوف من البلاط الواسع
الله أكبر محرما وموجها ... وجهي الى ربي بقلـب خاشـع
الحمد لله السلام عليكم ... آميـن لا تفتـح لكـل مخـادع
ان النساء خدعنني ومكرن بي ... وملان من ذكـر النساء مسامعي
حتى وقعت وما وقعت لجانب ... لكـن علـى رأسي لامر واقـع
فخطبن لي في بيت حسن قلن لي ... وكذبن لي في بيت قبح شائع
بكرا زعمن صغيرة في سنها ... حسنـاء تسفر عن جمـال بارع
حلوا لها شعر أثيث حالك ... كالليل تجلى عن صباح ساطع
حوراء ترنو كالغزال اذا رنت ... بجفون خشف في الخمائل راتع
نحو الكناس بمقلة وفصاحة ... تميل نحو الذكر قلب السامع
بسامة عن لؤلؤ متناسق ... في ثغرها عـن ظمـه متتابـع
أنفاسها كالراح فض ختامها ... مـن بعد مـا ختمت بمسك رائع
نسباء دون بداوة عربية ... تسطو بغيـر شجاعـة ومنـازع
هيفاء كالغصن الرطيب اذا مشت ... ناءت بـردف للتعجـل مانـع
تخطو على رجلي حمامة ايكة ... مخضوبـة تسبي فؤاد الخاشع
ووصفن لي من حسنها وجمالها ... البعض منه يقيم عـذر الخالـع
للموت واستأنست بعد توحش ... واطاع قلب لم يكن بمطـاوع
فشرطن اشراطا على كثيرة ... ما كنت في حملي لها بمطاوع
فحملنني نحو الدخول وجئنني ... بالساعدين وجلد كبش واسـع
ثم انصرفن وقد علمت بأنها ... قد اوثقت عني لهـا بجـوامـع
واركبنني يوما وعدن وقلن لي ... خـذ في البناء ولا تكن بمدافع
واصنع لها عرسا ولا تحتج الى ... ماض عليك ولا وكيل رافـع
فعرفت حتى عند ذاك ندامة ... ما كنت لولا أن خدعت بقارع
والبستني حتى انصرفت خديعة ... بعـد اليمين الى النهار الرابـع

نـمـوذجـات

مــــن

القصص والمقـامـات المغربيـة

مقامات الحضرمى

قصيدة لمالك بن المرحل

مقامة المكلاتى

مقامة للشيخ حمدون ابن الحاج

قصة المحب والحجام لابن الطيب العلمى

مقامة للوزير ابن ادريس



مشهد لرواية تمثل بين اطلال وليل

اما القصة فى الأدب المغربى المعاصر فمن غير شك تطور تفكيرنا الادبى، وكان ذلك نتيجة للاتصال الثقافى بيننا وبين الآداب اللاتينية والسكسونية المعاصرة . وكان نتيجة ايضا لاتصالنا الوثيق بالادب الشرقى المعاصر الذى اخذ بدوره عن الآداب الغربية. وهذه التاثيرات أدت بادبائنا ان يفكروا فى معالجة محاولات فى ميدان الاقصوصة وفى ميدان المسرحية سواء الشعرية او النثرية، ويخيل الى ان هذه المحاولات تشبه محاولة جمع اللبنات والاسمنت للشروع فى عملية البناء . وارجو ان نفهم قبل كل شيء ان القصة التى نتكلم عنها الآن والتى ابحث عن تاريخها المتسلسل هى القصة المكتوبة باللغة العربية فلست انكر وجود كتاب مغاربة انتجوا قصصا باللغة الفرنسية اذكر منهم الشرايبى وابن الهاشمى مثلا ولكن هذا النوع لا يعنينا الآن فى شيء، لانهم كتبوا انتاجهم بلغة لا تاثير لها فى المجتمع المغربى الذى يتكلم بلغة عربية.

فقد يكون انتاجهم عبارة عن تحفة فنية او قد يكون له اثر فى الادب الفرنسى اما بالنسبة الى المغرب والى المواطنين المغاربة فهذا ما اشك فيه كثيرا ، ومع ذلك فيمكن ان يفيض الله لانتاجهم القصصى والمسرحى مترجمين اوفياء ، ينقلون الى لغة الضاد هذه الآثار الادبية . ولن يكون لنا انتاج ادبى جدى الا اذا توفر ادبنا المغربى على مسرحيات ابطالها من صميم المجتمع المغربى واحداثها من صميم البيئة المغربية . ومن البديهى ان هذه عناصر ماثلة فى

حياتنا الاجتماعية، ومن الواضح ايضا ان لنا مواهب قصصية، ولكن الشيء الذى نشعر به هو فقدان التشجيع: هذا التشجيع الذى تتحمل مسؤوليته دور النشر والمنظمات الثقافية وطبقة القراء الذين يجب ان يبحثوا عن الغذاء الفكرى والعاطفى . ولست انكر ان هناك عوامل اخرى ذات اثر فى (ضعف القصة والمسرحية) فى ادبنا المعاصر . تلك العوامل البارزة فى فقدان التقاليد القصصية عندنا الحديث كما ان اللغة التى يجب ان تكتب بها القصة او المسرحية تحدث ذبذبة نسبية فى حياة القصة اذ ان كتابها يتأرجحون بين العامية والفصحى، بين (العامية) فيكون انتاجهم شعبيا شديد الاتصال بالجمهور : وبين الفصحى فيكون نسبيا جافا على ان هذا لا يمنع كتابها فى بلادنا من انتقاء لغة تحافظ على الفصاحة العربية مع استعمال المفردات ذات الاصل العربى او الجارية على افواههم . ولدينا قصص نشرت فى مجلات مغربية وبالاخص فى فترة ما بين (١٩٣٠ — ١٩٤٠) نعثر خلالها على قصص سامية سواء فى موضوعاتها او فى نسجها وحبكها كتبت باقلام الاساتذة السيد احمد بنانى والسيد عبد المجيد بن جلون والسيد عبد الرحمن الفاسى وهى قصص جديرة بالدرس والعناية .

أما التمثيل فى المسرح الحديث ، فقد عالجه المغاربة لاول مرة فى القرن العشرين وقد رأيت فى مذكرات مؤرخ مغربى توفى قريبا ما يلى :

كان يوم الثلاثاء 19 جمادى الثانية سنة 1341 اول تمثيل ظهر بالرباط ، وقد مثلت رواية تاريخية عربية غرامية وهى الخليفة هارون الرشيد مع حاكم البصرة ، قام فيه بعض الادوار محمد عز الدين المصرى خليفة سلامة حجازى ، أما اول تمثيل وقع من المغاربة فهو رواية صلاح الدين الايوبى وقلب الاسد ، وكان بفاس فى رمضان سنة 1345 ، ثم فى الرباط سنة 1346 مثلت نفس الرواية ، ثم فى ذى الحجة همت فرقة بالرباط بتمثيل رواية فتح الاندلس فمنعتها الحكومة (1) .

أما القصة فى الاداب العربية فى العصر الحديث فقد تطورت نتيجة للاحتكاك مع الغرب . وأكب اللبنانيون (على الخصوص) لعدة عوامل على ترجمة بعض القصص الى الادب العربى وظهر منهم نجيب الحداد (1889) مترجم الفرسان الثلاثة لالكساندر دوماس ونقولا رزق الله (1915) وطانيوس عبده 1926 وخليل مطران 1949 كما اهتموا بتاليف الروايات الطويلة حيث الف سليم البستانى (1884) « زنوبيا » و « بدور » ثم كتب جرجى زيدان (1914) الذى تاثر باسلوب (ولترسكوت) عدة رويات عن تاريخ الاسلام .

.. ثم نبغ كتاب شرقيون تفوقوا فى هذا الميدان اشهرهم توفيق الحكيم ومحمود تيمور والدكتور طه حسين وميخائل نعيمة وتوفيق عواد وخليل تقى الدين ومارون عبده وكرم البستانى وكرم ملحم كرم ونجيب محفوظ وغيرهم .

جاء فى مجلة المسرح التونسية (العدد الرابع من السنة الاولى) بقلم الاخ عبد الله شقرون أن لفيفا من الممثلين المصريين ورد على المغرب سنة 1923 وكان معظمهم من قدامى فرقة الشيخ سلامة حجازى ومثلوا روايات من آثار الشيخ سلامة وقد شخصوا روايه صلاح الدين الايوبى لنجيب حداد و (روميو وجوليت) لشكسبير وكان على رأس هذه الفرقه عز الدين المصرى ومصطفى الجزار وكان هذا الاخير يقوم بتقديم مسليات هزلية بين الفصول يلقيها باللهجة المصرية .

وقدمت من تونس فى نفس السنة فرقته اخرى تحت ادارة حسن (بنان) ومثلت (الطبيب المغصوب) لموليير ، وقد انتبه جماعة من شباب فاس لصاحب هذه الكوميديا فترجمت روايات (موليير) الى العربية وكان ابرز هذه الجماعة السيد المهدى المنيعى الذى أخرج رواية (ترتيف) (والبخيل) (والطبيب بالرغم عنه) وكذلك تكونت حركة مسرحية بمراكش تحت ارشاد مصطفى الجزار المصرى وفى سلا وفى طنجة وتطوان .

ومن المقامات التى اذكرها مقامات حضرة الاتياح المغنية عن الرواح لابن ابى حاتم المالقى المنسوبة خطأ الى ابن الخطيب ، ومؤلفها ابن ابى حاتم كان دهبيا بجبل الفتح ، ويقول احد علماء المخطوطات بان المخطوط منسوب اليه والمطبوع منسوب لابن الخطيب خطأ ويذكر الاستاذ كنون من بين المقامات مقامة لمحمد بن الطيب العلمى المتوفى بالشرق سنة (1134) وان كنت ارى انها بعيدة عن فن المقامات لعدم خضوعها لقوانينه وافراغها فى قوالبه ، وقد عثر على مقامتين لمؤلف مجهول يروى المقامة الراغب بن الوارث ، والاولى عبارة عن نزهة فى واد فاس والثانية برواية الراغب ايضا عن جولة فى تطوان · ومن المقامات مقامات حمدون ابن الحاج ومقامات محمد ابى جيدة (تقريبا سنة [illegible]) توجد نسخة منها عند الاستاذ داود بتطوان .

ومن اصحاب المقامات الاديب الكبير الوزير ابن ادريس المتوفى سنة [illegible] وهو اديب بارع الانشاء وشاعر مطبوع ويحدثنا فى مقاماته عن الفتح ابى سلامه . كما عثرت على مقامات لابن شقرون (وهى فى المصباح) ، وممن كتب المقامات ايضا شاعر فاس الاديب المرحوم غريط وهو اديب كبير الف (الجمان) وغالج الشعر فتفوق وقد ترك لنا (مقامة) ادبية. ونعود الى الاديب (العلمى) الذى ترك لنا قصة (المحب والحجام) ، وهى فى نظرى يمكن ان تقارن بقصة المويلحى (حديث عيسى بن هشام)..وان كان المؤلف المصرى اكثر تحررا فى الاسلوب من تقاليد الكتابة العميدية ، وتنعدم عند العلمى التجربة الاجتماعية والاحتكاك بمشاكل عصره ، وايا ما كان فهو فى قصته يكون حلقة بين المقامات والقصة فى الادب المغربى · كما كانت قصة المويلحى واسطة بين المقامات والقصة فى الادب المصرى اذ المقامة شبه قصة تدور حول بطل وهمى ، يروى الحوادث رواية وهمى لا تربطهما وحدة موضوعية ، وهى ميدان لاظهار القدرة البلاغية والتفنن فى البيان والبديع ، واذا فلا بد من رواية كعيسى بن هشام وابى الفتح الاسكندرى وكالحارث بن همام وابى زيد السروجى مثلا...

...وليست قصة (المحب والحجام) لا تتوفر فيها شروط المقامات ، لانها تهدف الى سرد قصة لها وحدة ، وتهدف الى مغزى ادبى واجتماعى اكثر من هدفها الى التفنن البلاغى ، واظهار المقدرة على التلاعب بالاساليب البديعة من جناس وطباق...

ولنا فى ميدان الشعر الملحون اقاصيص ذات اسلوب رائع فى لغتها ، محكمة النسج ، شبيهة الموعظة كقصة سيدنا يوسف ، وكقصة النبى عليه السلام وكقصة (الحراز) ويطول بنا الكلام لو عرضنا لنواحى الجمال فيها ، لان لغتها ليست عربية وان كانت انتاجا مغربيا ولاننا فى هذا الموضوع لا نعرض الا للانتاج العربى الفصيح .

المقـامات فى الادب المغـربـى

أما عن اصول القصة فقد عرف المغاربة فن (المقامات) (I) وءلجوا هذا الفن الادبى كما عالجوا كل الفنون الادبية التى وردت عليهم من الشرق ، ولا شك انهم اكثروا فيه وتفوقوا كذلك ، لما فى طبعهم من حب للحديث الطويل المحكم الاسلوب. والذى عثرت عليه من المقامات (مقامات لابن الخطيب) وقد نشرها العبادى تحت عنوان (مشاهدات لابن الخطيب) وهى ذكريات ومفاصلات بين المدن المغربية واذا كان ينقصها (قالب) المقامات فلا ينقصها اسلوب المقامات .. ومنها مقامات ابى حفص عمر بن شهيد ونورد منها هذا المقطع :

وملنا منزل بدوى يدوى ذى هيئة وزى

له منـــزل رحــب عريض مــزرب   باعــــواد بلــوط وطــوج مفتــــل

ترى بعــر الارام فى عرصاتــه   وسعاتــه كــانــه حــب فلفــــل

فهش وبش ، وكنس منزله ورش ، وصير عاليه الى ناحيه ، وجمـــع اطفاله فى زاوية.. الى آخرها ، وهى موجودة (فى رسائله التوابع والزوابع) .

ومن المقامات (مقامة المكلاتى(وهو اديب مغربى من العصر السعدى وترجمته مشهورة فى تاريخ السعديين ، كان كاتبا واديبا ممتازا.. وهناك مقامات لاحمد ابن حسين الحلبى المسماة الحلل السندسيه فى الصفات الاحمديه ، والحلبى هو اديب شرقى استوطن فسا وكان من أدبائها ، وقد ترجم له غير واحد من المؤرخين . وهناك مقامات عبد المهيمن الحضرمى . وهى مناظرة على لسان عشر جواز بواد الجواهر بفاس وسنورد نصها فى الاخير ..

(I) المقامة اسم للمجلس او الجماعة من الناس ثم سميت بها الاحدوثه من الكلام ويروى الاستاذ حنا الفاخورى فى تاريـخ الادب عـن العـلامـه بروكلمان ان المقامة فى اقدم معانيها ترجع الى ايام الجاهلية: اذ كانت عبـارة عن مجتمع قبيلة ثم اخذت شكلها الدينى فى عهد الامويين حيث كانت تروى فى مجالس الخلفاء ثم تطورت فصارت تقرن بالشعر والادب ثم هبطت فـى القرن التاسع الى مستوى الكدية والاستجداء .

فهى شبه قصة تدور حول بطل وهمى، يروى اخباره راوية وهمى لا تربطها وحدة موضوعية ولا تحييها شخصية حقيقية، تعرض فيها النكتة وتظهـر البراعة فى التخلص من المآزق فى اسلوب تبدو فيه المقدرة اللغويه والبلاغيــه

وهـذا الفن ، اعنى ادب الرحلات ، فن قصصى شائق وجذاب ، فرحلة ابن بطوطة مثلا ليست الا قصة شائقة لم يكتب لها ان تصاغ فى لغة ادبية رزينة ، ولـم تمتد عناية ابى عنان الذى امر بجمعها الى اسلوبها وقالبها . ولا اريد بالرحلات الرحلات السفارية او الرحلات الرسمية ، وانما اقصـد (الرحلات) السياحية التى يتاح للمؤلف فيها سرد الوقائع والاحتفاء بالغرائب والنوادر واضفـاء شخصيته على ما يكتب ويسرد ، كرحلة ابن بطوطة وكرحلة ابن رشيد الفهرى من قبله المتوفى سنة (057) ، ولا يمكن استقصاء هذا النوع من الرحلات لان الحديث عنه طويل ولان لها من يتقن الكلام عنها من رجال الادب المغربـى المعاصرين .

وكذلك كتبوا (الملاحم التاريخية) على نهج ما كتبه ابن الخطيب (١) فى ارقم، وذلك كما فعل ابو عبد الله الكراسى الاندلسى فى دولة الوطاسيين ؛ وهـى منظومة فى ثلاثمائة بيت تقريبا (انظر ترجمته فى دوحة الناشر) .

ومن الشعر القصصى القصيدة التى رواها صاحب الاحاطة لمالك بن مرحل عن قصة زواجه وسنورد نصها فى آخر هذا المبحث .

(١) اخذ عن ابى الخطيب هذا الفن ابو طالب عبد الجبار عن ابى شقرا الانـدلسى (انظر الذخيرة)

وكما كانت قصة (الهلاليين) شائعه فقد كانت هناك قصص اخـرى اكثر ذيوعا منها ، بل ان مؤلف كتاب تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين (يقول في الجزء الثاني ص 54) ان الموحدين شجعوا نشر الكتب التي تتحدث عن الفروسية او كتب المغامرات والقصص في جميع انحاء المملكة سواء في المغرب او في الاندلس ، بل لقد سمحوا بقراءة هذه الكتب من فوق منابر المساجد... والذى نعرفه في تاريخ المغرب هو ان الخلفاء عندما يشجعون حركة ادبية يباركونها في الواقع ، وقد أشار مؤلف كتاب العلوم والفنـون ، الاداب الموحديه الى هذه الملاحظه ، ونقل نص ابن خلدون عن الاستقصـاء ، وكذلك نص اشباخ .

أما القصة الفلسفية : فقد ترك ابن الطفيل المتوفى 580 قصة رائعة ، ولكنها ليست بادبية وانما هي قصة فلسفية ، ولا اعلم لها نظيرا في كتب الفلسفة الاسلامية، وهذه القصة هي (حي بن يقظان) ويقول مؤرخو الفلسفة انه اول فيلسوف اسلامي صب فلسفته في قالب قصصي فقد جعل بطل قصته شخصا موحدا يكون نفسه وافكاره بالاحتكاك بالطبيعة وبالكائنات التي هي اقل منه درجت ، من جماد ونبات وحيوان، الى ان يصل الى نقطة الادراك والاتصال ، ويقول (محمد لطفي جمعة) ان هذه القصة الخيالية تعد نوعا من الطوبى العقلية التي قلدها ونسج على منوالها كثيرون من كتاب الافرنج ومفكريهم كقصـة (روبنسان كروزوى) . ونستنتج من كلام المراكشي في المعجـب انـها كانت منتشرة في عهده ، فقد قرأها في جملة من قرأها ، ووصفها وصفا موجـزا ، وفي دائرة المعارف الاسلامية (مجلد لـ ع 4) ذكر لخلاصه هـذه القصـة المشهورة .

واما النوع الثاني واعني ادب الرحلات ، فان الذين كتب لهم ان يجولوا في المخطوطات المغربية عثروا بدون شك على كثير من هذه الرحلات القصصيه التي تشابه رحلة ابن بطوطه مثلا ، تلك الرحلة التي رغم رداءة اسلوبهـا القصصي ما تزال قصة ممتعة ، غالبت رحلة (ماركوبولو) وكانت اثبت منهـا على الخلود .

والمغاربه احبوا من قديم الرحلة عن ديارهم مدفوعيـن الى التـجوال حبا للعلم والمغامرة ، او للحـج او الاتـجار ، او للبـحث والاستكـشاف او للغزو والجهاد او للتفقد والتعهد ؛ كرحلات بعض الملوك والامراء أو للسفـارة الى بعض الدول... وكانوا يكتبون ما يشاهدون ويـدونـون المـلاحظـات والارتسامات ، واحيانا يسردون اقاصيص وحكايات مما ينزع منزع (القصة الادبيه) . كل ذلك فيما يكتبون في هذه المؤلفات التي يعبرون عنها (بالرحلات)،

مصر وسوريا والحجاز والعراق وبلاد الفرس وبلاد تركيا.. او فى بلاد الغرب كالاندلس (بعد الاحتلال) وفرنسا والمانيا او فى الجنوب المغربى كبلاد السودان وغيرها . ومن المعلوم انهم تجولوا كثيرا فى مختلف اقطار العالم ودونوا مشاهداتهم وكانوا ينزعون منزعا قصصيا فى سرد الحادث والمشاهدات والوقائع والتاريخ...

وهناك (قصص شعبى) كان ملهاة للشعب يسمر بسرده الناس ، ويقرأونه فى الكتب ، ويمثلونه فى الحلقات لسرد العبر الماضيه والاتعاظ بها ، أما عن هذا النوع الاخير أى عن هذه الاقاصيص الادبية التى تصف الوقائع وتسرد الاحداث فقد ذكر ابن خلدون فى تاريخه عند ما تحدث عن الهلاليين قائلا :

ولهؤلاء الهلاليين فى الحكايه عن دخولهم الى افريقيه طرق ، يزعمون ان الشريف ابن هاشم كان صاحب الحجاز ومكه ، ويسمونه شكر بن ابى الفتوح وانه اصهر الى الحسن بن سرحان فى اخته جازية ، فانكحه اياها وولدت منه ولدا واسمه محمد ، وانه حدث بينهم وبين الشريف المذكور مغاضبة وفتنة فاجمعوا الرحلة عن ارض نجد الى افريقيا ، وتحيلوا عليه فى استرجاع الجازية المذكورة ، فطالبته بزيارة ابويها فازارها اياهم وخرج بها الى حللهم واقام معها مدة الزيارة ، فارتحلوا به وكتموا رحلتهم عنه وموهوا عليه بانهم يبكرون به للصيد والقنص : ويروحون به الى بيوتهم بعد بنائها ، فلم يشعر بالرحلة الى ان فارق موضع ملكه وصار الى حيث لا يملك امرها عليه بانهم يبكرون به للصيد والقنص ، ويروحون به الى بيوتهم بعد بنائها ، وانها من بعد ذلك كلفت به مثل كلفه بها الى ان ماتت من حبه . ويتناقلون من اخبارها فى ذلك ما يعفى على خبر قيس وليلى ، ويروون كثيرا من اشعارها محكمة المبانى متثقفة الاطراف ، وفيها المطبوع والمنتحل والمصنوع ، لم يفقد فيها من البلاغة شىء كثير ، دخلته العجمة وفقدت فيه صحة الروايه فلذلك لا يوثق به ، ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بآياتهم ووقائعهم مع زناتة وحروبهم ، وضبط لاسماء رجالاتهم وكثير من احوالهم ، لكنا لا نثق بروايتها ، وربما يشعر البصير بالبلاغه بالمصنوع منها وغيره ، وهم متفقون على الخبر عن حال جازيه هذه والشريف خلفا عن سلف ، وجيلا عن جيل ، ويكاد القادح فيها والمستريب فى امرها ان يرمى عندهم بالجنون لتواترها بينهم (انتهى كلام ابن خلدون) .

ولست ادرى مصير هذه الاقاصيص وان كان الغالب على الظن ان بقاياها ما تزال تسرد فى باب عجيسة وباب الفتوح (بفاس) وفى باب جامع الفناء (بمراكش) وفى باب منصور العلج (بمكناس) وفى حلقات عادية يطيب فيها سرد القصص ويروق سماعها .

ميدان النثر ، ولكن الانهزام السياسي الخطير الذي انتهى بتوقيع ابي عبد الله محمد آخر ملوك غرناطة على وثيقة النزوح عن البلاد الاسبانية نهائيا ، ثم المأساة المبرحة التي انتهى اليها الموريسكو والدجنون بعد القسوة والتعسف الديني الذي سنته محكمة التفتيش الكنيسية ضد الحرية العقيدية... (وكانت حقبة هذه المأساة طويلة جدا لم تنته الا في عهد فليب الثالث بعد اجلاء الموريسكو..) (1) كانت هذه العوامل في هذه الحقبة المريرة تنفجر في منابعها الاليمة عن شعور انساني دافق لم تجد الالسنة الملجمة وسيلة للتعبير عنه في فصاحتها المألوفة؛ لان هؤلاء قد انتهوا الى التعبير بواسطة لغة جديدة ، هي مزيج من القشتالية والعربية واللاتينية ، وهذه اللغة تعرف في التاريخ الادبي باللغة (الالخميادو) والكلمة محرفة عن (الاعجمية) كتب بها هؤلاء انتاجهم الديني والادبي وفسروا بها القرءان وشرحوا الحديث ويذكر الاستاذ عنان في كتابه القيم (نهاية الاندلس) ان هناك شعراء يعبرون بلغتها في أداء عال كمحمد بن زيدان وهو شاعر قصصي الف ملحمة سماها (يوم الحساب) وله ملحمه في (حياة الرسول) ، وقد ترك كتاب هذه الحقبة قصصا ممتعة مشهورة في الادب الاسباني كقصة حديث القصر الذهبي ، وكتاب الحروب ، وقصة علي والاربعين جرية ، وقصة الاسكندر ذي القرنين ، والواقع ان ادب هذه الحقبة كان رائعا في تصويره اكثر من روعته في تعبيره ، وكان اثره قويا في الادب الاسباني باعتراف (الدون برونات) الذي نقل الاستاذ عبد الله عنان عنه هذه الكلمات الدالة على تقديره لهذا الانتاج الباكي .

وقد قال (فون برونات) : انه قد اختفى بطرد الموريسكو الادب المعطر ، والشاعرية الشعبية ، والخيال الممتع ومصدر الوحي الذي كانوا يمثلونه ، وقد غاض باختفائهم من شعرنا هذا التلوين والفن والحيوية والحماسة التي كانت من خواصهم ، وحل محلها الظلام في الافق الادبي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

وأما عن القصة في الادب المغربي بعد العصور الاولى من الفتح الاسلامي فقد ذكرنا ان اجدادنا بعد مجيء الاسلام اشتغلوا طيلة العهد الادريسي بالفتوح ونشر الدعوة الاسلامية أما فيما بعد هذا العصر فقد خلفوا انتاجا مسرحيا وقصصيا ..

ففي العصر الموحدي ، نجد ثلاثة انواع من القصص (القصص الفلسفي) الذي تركه لنا الفيلسوف ابن الطفيل ، في حي بن يقظان (وقصص الرحلات) وهي عبارة عن القصص التي يسردها الرحالون المغاربة ، اذ من المعلوم أن المغاربة اكثروا من التجوال سواء في داخل بلادهم او في الشرق العربي .

(1) انظر تفصيل ذلك في كتاب نهاية الاندلس للمؤرخ الاستاذ عبد الله عنان



مشهد رائع من رواية شعبية

ولما سطع نور الاسلام بالمغرب العربى انزوى الفن المسرحى وضعف ، لعدة عوامل ، اهمها ان الاسلام اضفى على الحياة الاجتماعية لونا جديدا متقشفا، فكان من دقة العمل أن يتخذ الانسان الموعظة الخلقية من المسرح بينما هو يملك بين يديه قرآنا عظيما يضم المواعظ ويحللها تحليلا فوق التحليل الادبى والفلسفى: فيغزو القلب والعقل ببلاغته وسحره ؛ ويصرفهما عن عبث المسرح ولهوه . وكان أن اندفعت الامة المغربية الى اوربا فاتحة غازية تحمل الدين الجديد ؛ وكان من نتائج هذا كله ان اشتغل الناس عن المسرح ونسوه بل احتقروه ونأوا عنه. ولم يفتر الحماس الدينى قط فى قلوب المغاربة فلم ينتكسوا ولم يحنوا الى اعطاف المسرح الرومانى ، ولكن كثيرا من القرى احتفظت ببعض الضروب المضحكات التى تمثل بمناسبة اجتماع الناس بالاسواق او ببعض المآسى المبكيات التى تمثل فى يوم عاشوراء بمناسبة ذكرى الامام الحسين وسمعه المغرب شيئا قليلا من ذلك لم يكن له اثر يذكر فى الحركة الادبية ، وان كان اثره قويا من الاوساط الشعبية التى كانت تتخذ منه ملهاة وموعظة . ثم احتفظوا بنوع من الكراكوز التقطوه من المغرب حينا ومن الشرق احيانا ولكن أثره ضئيلا جدا : كما عرف المغاربة فى عصور متأخرة ما يسمونه (بـ لبساط) وكان عبارة عن تشخيص قصص يعرض فى الحفلات والاعراس والمواسم والساحات الكبرى وكان هذا الفن يرمى الى غاية خلقية وموعظة اجتماعية بواسطة روايات صغيرة او قصيرة مسندة يعبر عنها (بالنوقعه) أما الممثلون او المشخصون لهذه القصص فكانوا يسمون (بوهوريات) ومفردها (بوهو) او يسمون (بالمسيح) (1). وكان هؤلاء ينتهزون الفرصة لنقد مجتمعهم والتشهير بالحكام المستبدين غير ان هذا النوع من الادب الشعبى لم يكتب له ان يسجل، لان الذين كانوا يقومون به كانوا اميين ، ولان الطبقة المثقفة كانت ترى من الزراية ان تعتمد على اساليبهم فى الوعظ بينما تملك هى طرقا أشد نفوذا فى الشعب : هى طريقة الوعظ الدينى الرزين .

ولنعد الى الاندلس التى تؤلف العدوة الثانية من المغرب العربى لنتابع حياة القصة بها . فقد غزت الاداب العربية عقر هذه الديار وتغلغلت المشاعر الاسلامية السبيلة فى قلوب سكان الفردوس المفقود . وقد تحدثنا فى القسم الاول من موضوع هذا البحث عن القصة المغربية فى الاندلس ، واريد الآن ان اواصل الحديث عن مصير هذه القصة بعد انهزام العروبة فى هذه البلاد سياسيا وادبيا . فقد علمنا ان اثر الجانبى فى الآداب الاندلسية كان واضحا وان الثورة الادبية التحريرية ، كانت بارزة سواء فى ميدان الشعر او فى

(1) انظر مجلة الشباب اصدار رابع ١٩٦٠

العصر الشاعر الملحمي الافريقي Corripus (كوريبوس) صاحب منظومه اليوجانيه نسبة الى ممدوحه (جان) ترويسلطه وهى قصه ملحميه تاريخيه تعتبر ن الآثار الملحمية المغربيه .

ونحن نعلم ان جل المدن المغربيه الرومانيه تحتوى على (تابيمول) وعلى (مسرح) وبدون شك فان هذا المسرح كانت تمثل فيه روايات تكتب تارة باللغه الرومانية وتارة اخرى باللغة القومية واللهجة العامية وان هذه الروايات التى تتردد بين الجودة والضعف ، كانت مرة هزلية تشوق الطبقة الشعبية بما تشتمل عليه من هزليات ومواعظ والوان من الفلكلور المحلى ، وكانت مرة قوية بما تشمل عليه من فن رفيع مقتبس عن الادب الرومانى ، غير ان الزمان لم يحتفظ لنا بشىء من ذلك وان كنا نعرف ان هناك بقايا حكايات ونوادر واقاصيص على السنة الحيوانات اوردها الكاتب البربرى (ابوليوس) وكانت معروفه فى العهد الرومانى كما خلف (اليزلان) من الاطلس المتوسط قصائد تمجد الفروسيه والبطولة ، ونحن ايضا نملك نصا رواه البكرى فى المسالك والممالك ، وهذا النص يصف فيه مسرحا قرطاجيا ، وما تزال قرطاج تحتفظ الى يومنا هذا بهذا المسرح العتيق الذى وصفه البكرى . وهو رحالة قديم يتحدث عن افريقيا فيصف (المسرح) بها ، والعجيب انه يسميه (طيطرو) باسمه الغربى ، وسننقل هذه الفقرة ، عن كتابه (المسالك والممالك) قال :

واعجب ما بقرطاجنة دار الملعب وهم يسمونه (الطياطرو) وقد بنيت اقواسا على سوارى، وعليها مثلها ما احاط بالدار ، وقد صور فى حيطانها جميع الحيوان ، وصور اصحاب جميع الصناعات ، وجعلت فيه صور الرياح فجعل صورة الصبا وجهه مستبشر ، وصورة الدبور وجهه عابس ، ورخام قرطاجنة لو اجتمع اهل افريقيا على نقله واستخراج جميعه ما امكنهم ذلك لكثرته ، وفيها قصر يعرف بالمعلقة مفرط العظم والعلو، فيه اقباء معقودة، وطبقات كثيره مطل على البحر وفى غربيه قصر يعرف بالطياطير ، وهو الذى فيه دار الملعب المذكور ، وهو كثير الابواب والتراويح، وهو ايضا طبقات على كل باب صورة حيوان من رخام ، وصور جميع الصناع ، وقصر يقال له قومش طبقات كثيرة ايضا فى سوارى ذات رخام مفرطة الكبر والعظم ، يتربع على رأس السارية منها اثنىعشرجلا ، وبينهم سفرة طعام او شراب ، وهى مشطبة كالثلج بياضا والمهاة صفاء (عن المسالك والممالك للبكرى ص 44 طبعة ارسلان) .

هذا نص البكرى وهو من رجالات اول القرن الرابع ، أما الروايات التى كانت تشخص بهذا المسرح فهذا ما لم يذكره البكرى وان كنت اعتقد ان من بينها مسرحيات بربرية ورومانية ، كما ان هذه المسارح المنتشرة في الارجاء دالة على وجود عدد كبير من هواة الادب المسرحى .

ادرى متى كتبوا ـ قصصا القصص المطوله . وان كانت حكايات (جحا) عريقة في التاريخ الادبى المغربى يتحدث عنها المؤرخون كاثر قديم جدا غير انها لا تخرج عن نطاق المسليات والاحاجى والمضحكات . أما المسرح بمعناه الحديث فلا ندرى معرفة ان العرب عرفوه قديما عن طريق اخرى غير الغرب الاوربى ، عرفوه في مسرح خيال الظل ، وفي مجلة (المقتبس) ان خيال الظل او الخيال الراقص او خيال جعفر هو الذى تسميه العامة (كركوز) ماخوذ عن قره كوز التركيه ، وهو المعبر عنه بالفرنسيه (ماريونت) وهو فن من فنون المسرح القديم .

وكذلك عرف العرب مسرح التعزيه في ادب الشيعة. والفكلور المغربى وان كان احتفظ ببعض عوائد الشيعة كرقصة النار مثلا فهو لم يحتفظ بهذا المسرح . وفي (حفلات) بعض المدن نعثر على مشاهد هزلية فقط، وأرشد القارىء الى دراسات المستشرق (كراتشوفسكى) عن المسرح العربى فهى مفيدة جدا وقد نقلها الى العربية الاستاذ عثمان الكعاك في مجلة (الثريا) التونسية .

والواقع ان القصة والمسرحية عرفت بصفة اجماليه في أدب الشمال الافريقى منذ قرون عديدة ، عرفت بعد اتصال اجدادنا القدماء بالرومان كما نشأ لهم بعد اتصالهم بمختلف الحضارات الاخرى التى ورثت عن الاغريق أدبهم ، وينقل الاستاذ عثمان الكعاك في (مجلة الفكر) عن (شوتان) في كتابه ، المسرح البربرى ، وعن (باسى) في كتابه : الادب البربرى ، ما يدل على ان المسرح البربرى الناطق والراقص والغنائى سبق على المسرح الرومانى بل ان هذا المسرح ، شاهد عصوره الحية بعد مؤلفات (تيرنسيوس) القرطاجى ، كما يعد خطر مسرح رومانى من بناء الامبراطور (غوز ديانوس) المنحدر من أرومة افريقية حسب ما ذكره (مصور) في كتابه (الادوقه) وظل الفن المغربى مستقل الشخصية كما هو في آثار ابليوس المؤلف القصصى ذو الطابع الخاص .

وكما عرف الادب المغربى القديم الفن المسرحى : عرف كذلك الفن القصصى ، فقد كتب البرابرة القصة باللغة البربرية القديمة ، وحافظ الرومانيون عليها في المزدهرات Florida وفي المسخيات Metamorphoses واحتفظ ابن ظفر الصقلى في كتابه انباء نجباء الابناء بالكثير منها كما ذكر ذلك الاستاذ عثمان الكعاك في بحثه عن الرواية والقصة ، ولعل تأثير هذه الاجيال هو الذى اوحى لاحمد بن شرف الصقلى ان يكتب اقصوصات يمكن ان تعتبر من مصادر (دانتى) في عصر لم يحفل فيه العرب بالكتابة القصصية وظهرت في أيام المرابطين حركة ادبية وبرز في هذا

(١) انظر مجلة الفكر التونسية

سيدخل بنا فى تفاصيل بعيدة عن موضوعنا ، بل ان القصة الاندلسية هى التى كانت من مواد القصة فى الغرب فقد جاء فى (تراث الاسلام) ان القصة تسربت الى اوربا من الاندلس واستطاع (البطرس الفونس) سنة 1120 وهو يهودى (تنصر على يد الفونسو السابع) ان ينقل اقاصيص تعرف بالتعاليم الكنيسة Disciplina Clericales التى لا نعرف من أين استقاها كما نعرف أن كليلة ودمنة ترجمت من العربية رأسا سنة 1251 وهى اقدم محاولة قصصية فى اللغة الاسبانية .

كما ترجمت هذه القصص من الادب الاسبانى ومن جملتها كتاب يسمى (كتاب القطط) Libro de los gatos الذى يرى الباحثون انه تحريف عن القطط.. وألف راهب انجليزى ادواوف شرتون Ado of chériton قصصا موجودة فى الادب الاسبانى فيها أمثال منقولة عن العربية .

ومن الغريب ، أو من باب رد الشيء الى اهله ان اعظم قطعه مسرحية اسبانية المسماة (سونى لفيدا) La Vida es Sueno (انما الحياه حلم) هى قصه (كروسنوفر سلاى) فى ترويض الشريرة وقصة (صحوة النائم) فى الف ليلة وليلة (1) ويذكر حسين مؤنس ان شكسبير استعان فى مطلع مسرحيته المسماة ترويض الشريرة بالاسطورة العربية المسماة (صحوة النائم) التى يزعم القصاص فيها أن الخليفه اراد ان يسخر من حمال فامر غلمانه فحملوه الى القصر وهو نائم فلما صحا الفتى نفسه محاطا بالخدم والحشم وممتعا بكل ما يصبو اليه خيانه ولم يصارحه الخليفه بالحقيقه بل انتظر حتى نام وامر به فحمل وألقى فى الطريق . وقد جعل شكسبير مكان الحمال عاملا اسمه (كرستوفر سلاى) ومكان الخليفة أحد النبلاء ، ويطول بنا الحديث لو اخذنا فى سرد كل القصص الاسبانية المتاثرة بالقصة العربية وسرد القصص التى تسربت من البلاد الاسبانية الى الادب القصصى الاوربى (فانظر تراث الاسلام) ، فقد بسط هذا الموضوع .

ولم تعثر فى آثارنا الادبيه القديمه على النصوص القصصيه العتيقه اذ قد اتصل أجدادنا بالحضارة الرومانية واتصلوا كذلك بالحضارة المسيحية من بعد وكان هذا الاتصال وثيقا جدا ، والذى نعرفه جميعا أن اجدادنا المغاربة من البربر كانوا من رجال الفكر فى روما وقد تركوا اثرا ادبيا وفلسفيا ودينيا وعالجوا الفن القصصى كما عالجه الرومانيون ولما جاء الاسلام اشتغلوا طيلة العهد الادريسى بالفتوح ونشر الدعوة الاسلامية بل انهم فى عصر المرابطين تعرفوا على كتب ابن المقفع القصصية ، ولست

(1) تراث الاسلام ص ٥٩

الذين ضاقت بهم وسائل الرزق فلجأوا الى هذا النوع من التكسب بين المتكسبين . وقد هجا ابن الرومي ابا بكر الارقى فشبهه بالقصاص قائلا :

واذا قال رسول الله مد الصوت مدا
فعل ساسى من القصاص اعمى يتجدى

غير ان مفهوم القصة والمسرحية تغير مع تطور الادب فاصبحت القصة اليوم روحا لا مظهرا وتفكيرا لا سرد حادث وهى فى جوهرها حسب تعبير احد القصاصين المحدثين قبس من الانسانية التى اليها مرد الفن الرفيع . ولهذا نحن لا نطلب من الادب القديم ان تكون قصصه ومسرحياته على أسس القواعد الحديثة لهذا الفن اذ انها مستوحاة من معطيات البيئة والثقافة والمؤثرات الخارجية . كما لا نطلب من المسرحية القديمة ان تتوفر على عناصر مسرحية اليوم حيث تطورت فى لغتها وادائها ووظيفتها .

والمهم من هذا السرد التاريخى لحياة القصة والمسرحية فى الادب العربى ان امهد للحديث عن القصة والمسرحية فى الادب المغربى لانه مهما يمكن أن يقال عن خصائص ادبنا ومميزاته فهو جزء من الادب العربى ، ولذلك فمعظم الاسباب التى يسحبها النقاد لضعف القصة والمسرحية فى الادب العربى يمكن ان نسحبها بالنسبة للادب المغربى ولا سيما بعد الفتوح الاسلامية فى الشمال الافريقى وانتصار اللغة العربية على اللهجات المحلية ، غير انه اذا كانت البيئة عاملا من عوامل ازدهار القصة فان البيئة المغربية تخالف البيئة العربية فى شتى بلدان العالم العربى حيث ان هذه البيئة من شانها ان تعين الفن القصصى على الازدهار وذلك لان القصص غالبا ما يظهر فى الامم المترفة فى حياتها الاجتماعية والاقتصادية لان الترف يوحى للنفس بالاستسلام للذة الحديث الطويل والاسمورة الممتدة الذيول ، مما يساعد على تكوين الخيال القصصى او على تكون لحمة القصة فى الاداب بصفة عامة .

وذلك لان القصص غالب ما يظهر فى الامم المترفة فى حياتها الاجتماعية والاقتصادية لان الترف يوحى للنفس بالاستسلام للذة الحديث الطويل والاسمورة الممتدة الذيول . مما يساعد على تكوين الخيال القصصى او على تكون لحمة القصة فى الاداب بصفة عامة .

وقد عرف المغاربة هذه القصص فى بلادهم عرفوها فى البلاد الاندلسية التى عاشوا فيها حقبة من تاريخهم ، والحديث عن الاندلس يجرنا الى الكلام على رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد وعلى اسبقيتها التاريخية لرسالة الغفران (المنهاة التى كتبها المعرى بعد ابن شهيد). ويجرنا الى ذكر الملحمة التاريخية التى نظمها ابن عبد ربه والاخرى التى نظمها ابن الخطيب ، وهذه الصورة الادبية . وان كانت شديدة الاتصال بالادب المغربى الا ان الحديث عنها

التفكير لا ينظر الى موضوعه نظرة شمولية (انظر حنا فخورى فى كتابه تاريخ الادب العربى ص 44) .

والواقع أن للعرب قصصا ولكنها لم تكتب لاستنفاد الرغبة الفنيه بل كتبت للتسلية والمتعه وبيان المقدرة البلاغيه . ولذلك خرجت عن قواعد الفن القصصى المألوف فى القصص العالمى . واذا كانت قواعد الفن المسرحى توجب اعتبارات موضوعيه لتكوين عناصر القصة كالتحليل والعقدة ومراعاة الزمان والمكان فان هذه القواعد فرضها النقد الغربى المستوحى من بيئته اما فى الادب العربى فللقصة شأن آخر ولهذا فللعرب تراث قصصى منه ما وضعوه كالقصص الطويل الماثل فى حياة مجنون ليلى وجميل بثينه وغيرهما وكالقصص القصير الماثل فى حوار عمر بن ابى ربيعه وميميه الحطيئه والشعر ويات القصصيه الواضحه فى سيرة عنترة بن شداد وقصه سيف بن ذى يزن مثلا . ومن القصص ما نقلوه عن غيرهم لمعظم قصه الف ليله وليله وحكايات كليله ودمنه . بل ان المقامات التى اشتهرت فى الادب العربى هى لون من الادب القصصى وهى نواة هذا الفن فى ادبنا ففيما كتبه الامام ابن الحسين احمد بن فارس وما حدث به ابن دريد المتوفى سنه 321 وما تشمله رسالة اخوان الصفا فى موضوع الانسان والحيوان أمام محكمه الجن وفيما كتبه البديع والحريرى وغيرهم ، وفيما رواه صاحب الاغانى من حكايات وأقاصيص وما حكاه ابن الانبارى من حكايات ، وقصه التوحيدى من انباء ما يلتقى ان يعتبر فنا قصصيا حسب معطيات البيئة والوسط العربى وان قصص الببغاء وقصة احمد بن يوسف المصرى وعبد الله بن عبد الكريم المصرى والمحسن التنوخى لمن القصص الممتعه بل ان العرب القدماء عرفوا بعض فنون القصص حسب ما توحى به بيئتهم ووسطهم وفى مساجلات عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة لون من الشعر الملحمى كما فى معلقه امرئ القيس صور من الشعر القصصى ولما ظهر الاسلام ازدهرت القصة كذلك وبدت جليه فى بعض قصائد عمر بن أبى ربيعه . وفى ادب الفرزدق وجرير والاخطل لون من الوان الشعر القصصى الذى يعلن عن المفاخر القوميه ويشيد بذكر الابطال ويمجد فضائل القبيلة بل ان الاسلام بعث الروح القصصيه بما جاء فى القرآن الكريم من قصص ومواعظ ودعوة الى الاعتبار من القصص ومن ذلك قوله تعالى لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب . وجاء فيه . نحن نقص عليك أحسن القصص . ولما يستمد من العبر من القصص اشرب معناها بالوعظ وسمى الواعظ قاصا وفى كتب الحلية تراجم ضافية لعدة قصاصين ، وجاء فى قوت القلوب ان الصوفية كانوا يتهمون القصاص فقاوموهم لانهم (يخلطون ويغلطون ويقدمون ويؤخرون) . كما شاع فى العصور الاسلاميه الاولى اطلاق القصاص على الذين يقصون فى الحلقات اخبار السلف قصد الموعظة والاعتبار وكانوا فى الغالب من المربين

ويرى عبد الوهاب عزام ان العرب غير مولوعين بالاطناب فى الشعر وفى الشعر القصصى والاسهاب فيه ويستدل على ذلك ان قصة يوسف التى قصها القرآن وقصة مجنون ليلى لم يتصد لنظم احداهما شاعر عربى على حين نظمهما شعراء الفرس مرارا وافتنوا فيهما افتنانا واقتدى بهم شعراء الترك وينقل عن ابن الاثير فى المثل السائر قوله فى تعديد الفروق بين الكتابة والشعر

« والسبب ان الشاعر اذا اراد ان يشرح امورا متعددة ذوات معان مختلفة فى شعره واحتاج الى الاطالة بان ينظم مائتى بيت او ثلاثمائة او اكثر من ذلك فانه لا يجيد فى الجميع ولا فى الكثير منه بل يجيد فى جزء قليل ، والكثير من ذلك رديء غير مرضى ، والكاتب لا يؤتى من ذلك بل يطيل فى الكتاب الواحد اطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس او اكثر من ذلك ويكون مشتملة على ثلاثمائة سطر او اربعمائة او خمسمائة . وهو مجيد فى ذلك كله . وهذا لا نزاع فيه لانا رأيناه وسمعناه وقلناه ...

وعلى هذا فانى وجدت العجم يفضلون العرب فى هذه النكتة المشار اليها. فان شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من اوله الى آخره شعرا وهو شرح قصص واحوال ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم . كما فعل الفردوسى فى نظم الكتاب المعروف بشاهنامه وهو ستون الف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس . وهو قرآن القوم . وقد اجمع فصحاؤهم على انه ليس فى لغتهم افصح منه وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها واغراضها وعلى ان لغة العجم بالنسبة اليها كقطرة من بحر » .

ومنهم من يعلل عدم وجود القصة باسباب اخرى: وهى ان الشعر القصصى او الى الواقع شعر الملاحم حيث يتناول الشاعر فيه حياة الابطال والامم والجماعات والوقائع والسرد فى اسلوب يعتمد على العجائب والخوارق والإعجاز . ويقرب منه الشعر التمثيلى الذى يتناول فيه الشاعر موقفا تاريخيا او خياليا حيث يبعث الحياة فى اشخاص يعتبرهم ابطال مسرحيته ينطق كل واحد منهم بكلام يليق بحسب نفسيته وتربيته ووضعه . فالادب القصصى ادب شعرى فيه حياة الشعوب والجماعات ولا يظهر عنده الا فى طفولة الشعوب. واما خلو الادب العربى من الشعر القصصى لان الشاعر الجاهلى كان بعيدا عن ان يهيج العاطفة الوطنية تهيجا قويا يلهب حماسه القومى لان نظام حياته كان قبليا تسوده الغارات والغزوات لا الحروب التى يتعرف فيها الى جيوش بلاد اخرى. ولان الشاعر الجاهلى كان مهلهل العقيدة الدينية فاذا كان واقعيا لا يحفل بالخيالات الواسعة والخوارق العظيمة ، ولانه ايضا كان بدويا بسيط

المصرية القديمة قصص (بنتاهور) وعرفت الاداب العبرية قصص التوراة وعرفت الاداب الهندية المهابهارتا وعرف الاغريق نحوا من سبعين ملحمة وعرف الادب الفارسى ملحمة الشاهنامة كما عرف الرومان تلامذة الاغريق الياذة فرجيل .

وفى اوربا عرف الجرمانيون والسكندنافيون ملاحم ادبية كما عرف الغاليون (الفرنسيون القدماء) اغانى رولان التى تقرب فى نسجها من الملاحم (1)

وعند ما يتحدث نقاد الادب عن انواع الشعر الثلاثة الوجدانى Lyrique والقصصى Epique والتمثيلى Dramatique يحاولون أن يوفقوا بين الادب العربى والادب الغربى ، ويحاولون أن يجدوا الاسباب التى جعلت الادب العربى خاليا من الشعر القصصى والتمثيلى ويرجعون سبب هذا الفقر الى أسباب كثيرة منها : أن الشعر القصصى والتمثيلى انما يعتمد على اعتمال الروية والفكرة ، والعرب اقرب الى الارتجال منهم الى الفكر المتانى والمنتظم ، وأن الشعر التمثيلى يتطلب الالمام بطبائع الناس والتحليل والتطويل ، والعرب يوجزون كلامهم وقلما يستكنهون الموضوع ، ومنها ان العرب لم يغامروا فى الاقطار النائية فضاقت تجربتهم وتبسط دينهم فلم ترتع الاساطير فى عقيلتهم... والشعر القصصى يعتمد على الاساطير والمغامرات ... ومنها ان طبيعة الجنس السامى الا يحلل منطقيا ، بل يشعر بوجدانه ، فلذلك سموا فى الشعر الغنائى وضعفوا فيما عداه ، وكما عدموا الفن القصصى فى الشعر العربى والتمسوا له هذه العلل التى ذكرت ، اعتبروها سبب ضعف الفن القصصى بالنسبة للنثر العربى أيضا ، والواقع التاريخى هو ان النثر الادبى جاء بعد الشعر اذ بطبيعة الحال ياتى دور اعمال الفكر بعد دور العاطفة والخيال غير ان النقاد لما لم يعثروا على (القصة) فى الآداب العربية سواء كانت نثرية او شعرية التمسوا العلل الآنفة وزعموا أن السامى لا يحلل الاشياء تحليلا ولا يستوعبها استيعابا وانما يعرض للظواهر فقط كما ذكرت وامثل لذلك بما ذكره عزام فى مقدمة الشاهنامة بقول الشاعر العربى :

ولا يقيم على ذل يراد به الا الاذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له احد

وبما قاله الشاعر الفارسى أود ان يكون اعداؤك كوتد الخيمة ابدا ، جسمه فى التراب ، ورأسه للحجر ، والحبل فى عنقه فاوجز الشاعر العربى مقتضبا وأطنب الشاعر الفارسى محللا وذكر الدكتور عبد الوهاب عزام فى مدخل الشاهنامة ان هذا مثال يصلح للفرق بين الادبين العربى والفارسى .

(١) انظر الشاهنامة الجزء الاول ص ٢٢



موقف رائع من تمثيل فرقة مغربية

القصـة والمسرحيـة فى الادب العربـى

من المألوف فى كتب تاريخ الادب العربى ان تعرف القصة على انهـا فن ادبى يقوم على سرد الحدث التاريخى او الحدث الخيالى مع هدف الى تحقيق متعة حسية وابداع فى نسيج ادبى جميل .

وانما تكون القصة نثرية تكون شعرية غير ان القصة الشعرية الطويلـة متعددة الاحداث تسمى ملحمة اما القصة النثرية فقد تقصر حتى تسمى حكاية او نادرة وقد تكبر بما يضفى عليها من تحليل نفسى ووحدة فى العمل والغايـة فتسمى رواية . والقصة وليدة التأثر بمشاهد الكون وتفاعل افراده وجماعاته مع مظاهر الكون الجبار حيث يفاجأ العقل الاولى بصور لا يستطيع تحليلها وتفهمها وانما يتوجها فى خوف وتأثر وخيال تضحى به اسطورة ثم يأتـى الشاعر او الكاتب الذى يصوغ هذه الاساطير فى سرد ممتع اخاذ تضحى به ملحمة او قصة. ولكن العقل البشرى عندما ينمو ويتقدم تختفى الاسطورة والملحمة وتظهر القصة الحية المتقدة الناضجة (١) ومن السهل الرجوع الى كتب تاريخ الادب ككتاب حنا الفاخورى وجرجى زيدان للتعرف على فروع القصة والمسرحية فى الاداب الانسانية .

ولا يخلو ادب اية امة من القصص غير ان مجال الابداع الفنى فى القصة هو نقطة التمايز بين الادب القصصى فى مختلف الامم . ومصدر القصص هو التفاخر بالمثل العليا سواء فى المواقف الحربية او فى مواقف الفضيلة والتقوى او فى مواقف النصيحة والمثل العليا ويرى الاستاذ مول فى مقدمة الشهنامة رأيا فى نشوء القصص والملاحم مضمونه ان كل امة لا تخلو حياتها من قصة او ملحمة لانها تجتاز مراحل من المخاوف تتجلى فيها اعمال الابطال، وقد وجدت هذه الملاحم فى جزائر بحر الجنوب وعند الايقوسيين والاغريق والجركس وعنـد الاسبانيين والعرب . لان الناس يقصون قبل ان يكتبوا وانما يعتمد المؤرخون على ما يقصون فمصدر الملاحم طبيعى فى الامم وانما يظهر بعد وجود شاعر قادر على ان يجمع القطع المتفرقة ويصوغها . وكلما تطورت الامة ونما تفكيرهـا تقدم فيها الادب الملحمى والقصصى وحلت الاداب المدرسية والكتب محـل القصص وقد احتفظ تاريخ الادب لكل امة بملاحمها وقصصها فقد عرفت الاداب

(١) راجع حنا الفاخورى فقد اسهب فى تعريف القصـة

الكثير من تاريخ ادبنا ، ومع الاسف فالنهضة الجديدة للعربيه بالشرق لا تتناول الاندلس والمغرب بالدرس الصحيح ان لم تكن تنقصه حقه فالكيلاني مثلا فى كتابه نظرات فى الادب الاندلسى ، والدكتور ضيف فى كتابه بلاغة العرب فى الاندلس وغيرهما من مؤرخى الاداب العربية كالبستانى والزيات والفخورى وجرجى زيدان لا يعتبر ما كتبوه عن الاندلس والمغرب الا محاولات ضئيله لا تعطى صورة حقة للادبين الاندلسى والمغربى فى اجياله المديده بل ان مؤلفى كتاب المطرب فى الاندلس والمغرب زعما ان الشمال الافريقى ليس له ادب يستحق الذكر ولم يساهم بقسط ما فى صرح الثقافة العربية العامة، وان الاندلس لم تبلغ فى آدابها درجة الديار العربيه الاخرى، وهما (اى المؤلفان) يعبران عن خطا صريح لا يحتاج للنقد ، وقد برهن الدكتور زكى مبارك حين عمد الى الموازنة بين الشعراء فاختار طرفا من قصيدة بن دراج القسطلى عن مساعد التنصيص وتاسف على فقد قصيدة بن دراج وعدم وجودها كاملة لتتم له الموازنة عن فقدان مصادر ادبنا فى بلاده وفاته ان ديوانه مشهور فى خزائن المغرب . على أن الشرقيين يلتمس لهم العذر لبعد الديار ، اما نحن المغاربة فانما نعبر عن اهمال وبالتالى عن كسل فادح وما يزال الكتاب والمترجمون الشرقيون يشكون فى ادبنا حتى فى هذه الحقبه الاخيرة ولذلك فهم قلما يتحدثون عن نهضتنا الادبية الجديدة وأذكر على سبيل المثل ان الاستاذ أنيس المقدسى لم يشر الى ادبنا فى كتابه (الاتجاهات الادبية فى العالم العربى الحديث) ولا ننسى ان ننبه على أن هناك كتابا وادباء شرقيين من قادة الفكر فى هذا العصر عرفوا منزلة الادبين الاندلسى والمغربى فاحترموا اثرهما فى الادب العربى كالدكتور طه حسين والاستاذ العلامة شكيب ارسلان والدكتور حسين مؤنس وعبد العزيز الاهوانى والاستاذ العقاد الذى بارك نهضتنا الجديدة بقوله (ان المغرب الاقصى فى نهضة ادبية مباركة) وان الكتابة فيه انطلقت من عقال الجمود واستقامت على الجادة السوية فى خطوات تتقدم به ولا تزال مبشرة باطراد التقدم .

ذلك واعتب مما عملت واجهدت نفسى بجمع ما وجدت من حسنات دهرى ، وتسع محاسن اهل بلدى وعصرى غيرة لهذا الافق الغريب ان تصبح بحارة بيدا مصححه مع كثرة ادبائه ووفور علمائه . وقديما ضيعوا العلم واهله ، ويارب محسن مات احسانه قبله وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان وخص اهل المشرق بالاحسان .

بل ان الكتاب الاندلسيين والمغاربه كانوا يحافظون على ما يصطنعه كتاب الجزيرة العربيه والعراق والشام . وكذلك كان المغاربة ايضا يهتمون بآثار بلاد المشرق ويفضلون آثار بلادهم . وان مؤلف زهر الاداب يحدث فى مقدمة كتابه ان عباس بن سليمان ارتحل الى المشرق فى طلب الكتب باذلا فى ذلك ماله مستعذبا فيه تعبه الى ان اورد من كلام بلغاء عصره وفصحاء دهره طرائف غريبه وغرائب عجيبه (وسأله ان يجمع له من مختارها كتابا يكتفى به عن جملتها فألف كتاب زهر الاداب)

ونفسر هذا ان المغاربة والاندلسيين كانوا لا يحتفون بانتاج بلادهم لاسباب . (منها) لانهم يعرفون آثار بلادهم فهم ينقلون الى المواطنين الوانا اخرى من الادب . (ومنها) لانهم كانوا يرون الشرق مثلهم الاعلى؛ وكان الادب الشرقى دفقا فى الاندلس والمغرب (ومنها) لتوثيق صلة العروبة بينهم وبين العرب فكانوا يحرصون على نقل آثار الشرق ولو على حساب آثار بلادهم . وليس هذا بالنسبة للادب فقط بل حتى بالنسبة لباقى العلوم والوان المعارف ثم كانت الرحلة الى المشرق من مكملات ثقافة الرجل المغربى .

ونذكر ايضا ان كثيرا من المترجمين المغاربة يعرضون لذكر عدم اهتمام المغاربه بعض التراجم فمن ذلك ما ذكره ايضا مؤلف كتاب المجد الطارف والتالد وهو الاديب محمد الامين الصحراوى فى رحلته الى الرباط حيث يقول (ومن عادة علماء مغربنا يميتون مآثر علمائهم) (1) والواقع ان الباحث فى الادبين المغربى والاندلسى يجد صعوبة وجود المظان والمصادر وهو مهما يكن محظوظا فلا تستطيع دراسته ان تتصل بسوى المصادر المتداولة والتى لا تكفيه بوضع (كنفح الطيب) (واجزاء الاحاطه) (وقلائد العقيان) (ومطمح الانفس) (والكتيبة لابن الخطيب) (والمجموعة الاندلسيه المطبوعة بمدريد) (وازهار الرياض) (والمعجب المعرب) وما اشبه هذه المواد المتداوله بين الناس . (2) ولكن تاريخ الادب المغربى اوسع من ان تحيط به امثال هذه المصادر القليلة فهناك آلاف المخطوطات فى حاجة الى الدرس لنستخرج منها الشىء

(1) انظر مقدمة الاغتباط لابى جندار
(2) انظر مجلة (النبوغ) المغربية

مقدمة

لا اريد بدراسة هذا الموضوع الا تعريف المثقفين بآداب بلادنا ودورها في تكوين اصول الادب العربي ، ومساهمتها الفعالة في الاداب العالمية بما انتجه ابناؤها في ميدان الفكر والعاطفة من انتاج خليق بالتقدير والاعجاب ·

فاذا حاولت تقديم هذا المبحث الى المثقفين خصوصا فلست اريد وراء ذلك الا كتابة تاريخ كادت معالمه ان تطمس وأوشكت خطوطه ان تمحى ·

ومنذ عهد ليس بالبعيد أخذ الادباء المغاربة يفكرون في ذخيرة اجدادهم ويسعون الى اخراجها من بطون المخطوطات ·· ولكنهم لم يكتبوها كاملة مدونة سهلة المأخذ ، جمة الفائدة تفيد مختلف الناس على السواء ·

اذ الواقع اننا لا نجد بين ايدينا كتابا يلم ولو الماما بسيطا بموضوعات من ادبنا المغربي ويعبر لنا في سهولة ويسر عن عظمة ماضي اجدادنا الثقافي · ولعل مصدر هذا التقصير هو عدم احتفائنا تراث اجدادنا وفقدان الثقة بقيمة انتاجهم حتى ان المستشرق الفرنسي (ليفي بروفينصال) ذكر في مقدمه كتابه (مؤرخو الشرفاء) ان المغاربة مسؤولون عن تاريخهم وانهم منذ القديم لم يهتموا بفن التاريخ والتراجم وآثار الاجداد ، ونقل المستشرق عن الكتاني في سلوة الانفاس ما ذكره من ان المغاربة قليلو الاعتناء بتاريخهم ، وقبله كتب العربي الفاسي صاحب المرآة كلاما جاء مضمنه في محاضرات اليوسي يقول فيه (ان جماعة من العلماء وسموا المغاربة باهمال ، ودفنهم فضلائهم في قبر تراب واخمال ، فكم من فاضل نبيه ، طوى ذكره عدم التنبيه ، فصار اسمه مهجورا ، كان لم يكن شيئا مذكورا (1) ولهذا فان المؤرخين والمترجمين المغاربة على نزرهم القليل يشعرون بضعف ثقة الناس بهم (فيما يصنفون) فيصرفون وقتا غير قليل في الدفاع عما يكتبون

وقد عبر عن هذا بصراحة ابن بسام الشنتريني المتوفى سنة 543 في كتابه الذخيرة قائلا (الا ان اهل هذا الافق ، ابوا الا متابعة اهل الشرق يرجعون الى اخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة ! حتى لو نعق بتلك الافاق غراب او طن باقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما وتلوا ذلك كتابا محكما ، واخبارهم الباهرة واشعارهم السائرة مرمى القصية ومناخ الرذية لا يعمر بها جنان ولا خلد ولا يصرف فيها لسان ولا يد فغاظني منهم

(١) مرآة المحاسن صفحة ٤ طبعة فاسية

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا فصل من كتاب (تاريخ الادب المغربي) آمل ان يعطي صورة عن أدب بلادنا ودوره في بناء صرح الادب العربي .

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

معهد الدروس العليا المغربية
بيانات ومستندات
الجزء (٢٠)

من تاريخ القصة والمسرحية

في

الادب المغربي

تاليف

الحسن السائح

مطبعة « الفجر »

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

معهد الدروس العليا المغربية
بيانات ومستندات
الجزء (٢٠)

من تاريخ القصة والمسرحية في الادب المغربي

تاليف

الحسن السائح

مطبعة « الفجر »